منتقاة المسيب بن علس

دراسة بلاغية

د: اعتماد السيد عبد الفتاح شاهين

مدرس البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات بالإسكندرية

منتقاة المسيب بن علس دراسة بلاغية

اعتماد السيد عبد الفتاح شاهين
مدرس، البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية، جامعة الأزهر، مصر
البريد الإلكتروني: eetmadshheen_islam.alx@azhar.edu.eg

ملخص البحث

يتناول هذا البحث منتقاة المسيب بن علس بالدراسة والتحليل البلاغي؛ لمعرفة أهم ما تتميز به هذه المنتقاة، وسبب اختيار أبو زيد القرشي صاحب الجمهرة لها، وجعلها أولى المنتقيات؛ لذلك اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي، وفي **التمهيد:** تم التعريف بالمسيب وبالمنتقاة، و**المبحث الأول:** تناول الحديث عن رحيل المحبوبة، وحزن الشاعر وألم قلبه بسبب الفراق، ووصف ثغر المحبوبة، ووصف الهوادج وطريقها. أما **المبحث الثاني** تناول فيه الشاعر مدح مالك بن سلمة الخير القشيري بأنه أكرم من مدحهم، حيث وصفه بفائق الكرم، مستخدمًا صورًا بيانية متعددة جميعها تبين كرم الممدوح. أما **المبحث الثالث** فتناول المنتقاة بالتحليل النقدي، وتم التوصل إلى أن هذه المنتقاة قد جاءت متماسكة البناء، بديعة السبك، جيدة الوصف، مختارة الألفاظ، شريفة المعاني، وغير ذلك كثير مما يثير الاعجاب ويلفت الانتباه، ويؤكد سبب اختيار أبو زيد القرشي لها وجعلها أولى المنتقيات.

الكلمات المفتاحية: المسيب، منتقاة، بلاغة.

Selected Musayyib bin Alas
Rhetorical study

Eatmad Elsayd Abdelfattah Shahen
Teacher of rhetoric and criticism College of Islamic Studies And Arab girls in Alexandria
eetmadshheen_islam.alx@azhar.edu.eg

Abstract: This research deals with the selection of Al-Musayyib bin Alas, through study and rhetorical analysis. To know the most important features of this selection, and the reason for choosing Abi Zaid Al-Qurashi, the owner of the crowd, for it, and making it the first to choose; Therefore, the study relied on the analytical method, and in the preface: the introduction of the desolate and the selection was made, and the first topic: it dealt with the discussion of the departure of the beloved, the grief of the poet and the pain of his heart due to the separation, the description of the loophole of the beloved, and the description of the hoarse and its path. As for the second topic, the poet praised Malik bin Salamah al-Khair al-Qushayri as being more generous than their praise, describing it with the utmost generosity, using multiple graphic images, all of which show the generosity of al-Mamdouh. As for the third topic, it dealt with the selection through critical analysis, and it was concluded that this selection was coherent in construction, Badi'a al-Sabak, well-described, chosen words, honorable meanings, and many other things that attract admiration and draw attention, and confirms the reason for Abu Zaid al-Qurashi's choice of her and choose

key words: Musayyib, eclectic, eloquence

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم سواه بشرًا، وحباه العقل السليم ليفكر ويحسن التفكير، فتبارك الله أحسن الخالقين، والصلاة والسلام على أفصح العرب أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربهم إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فمن أهم العلوم التي وُضعت للبحث في إعجاز القرآن الكريم علم البلاغة، الذي له فضل كبير في بيان أساليب العرب، وتراكيب لغتهم، وما تمتاز به من قوة في اللفظ والمعنى والعاطفة والخيال، وهذا ظاهر في شعرهم؛ مما أعان كثيرًا على فهم تراثنا؛ للوقوف على معرفة إعجاز القرآن الكريم.

ومن المعروف أن الشعر هو "ديوان العرب" يصور أحوالهم وطباعهم، وقيميهم، وهو سجل حُفِظَتْ به الأنساب، وذُكِرَتْ الأيام والوقائع، وعُرِفَتْ المآثر والأمجاد والمفاخر والبطولات، وتعد جمهرة أشعار العرب من أشهر كتب الاختيارات الشعرية، وقد اُخْتِيرت واُنْتُقِيت من عيون الشعر العربي، الجاهلي والإسلامي؛ ويفتقر هذا الشعر إلى قراءة جديدة ودراسة متخصصة تميط اللثام عن وجوهه المشرقة وتجلِّي مواضع الجمال والفن فيه؛ وشعر المنتقيات فيه أشعار رائعة لم يتح للناس أن يعرفوها على حقيقتها إذ لم تعرض عرضًا جديدًا شائقًا، لذا فإن هذه الدراسة تعد توجيه لأنظار الباحثين نحو أشعار الجمهرة عامة، وشعر المنتقيات خاصة؛ لدراستها ومعرفة ما حوته من بلاغة عالية؛ ومن أصحاب المنتقيات المسيب بن علس أحد مفاخر العرب شعرًا، صورة ولغة وجزالة وفحولة، والمتتبع لشعره يجد خلوه من المطولات فهو مقتضب مباشر، له عدد من القصائد والمقطعات الرائعة، وإذا وصف السيل والإبل والطريق ومدح؛ فإنه مصور رائع ماهر مبدع عالي الدقة ثمين الكلمة وخطيب مجلجل يُنهض الهمم ويطرب القلوب ويحرك السيف ويخرج الدراهم والعطيات وليس أدل على ذلك من هذه المنتقاة التي مدح بها ذا الرقيبة مالكًا القشيري، فهي ذائعة الصيت جزلة

المعاني فيها كثير من الصور الرائعة والتشبيهات الحسنة في المدح؛ لهذا وقع اختياري على هذه المنتقاة لتكون موضوعًا للبحث والدراسة؛ لإبراز الجانب البلاغي فيها فكان هذا البحث: بعنوان (منتقاة المسيب بن علس دراسة بلاغية)؛ لمعرفة ما تمتاز به من خصائص كانت سببًا لاختيار أبى زيد القرشي لها وجعلها أولى منتقيات العرب، وهي سبع جياد.

وتقوم الدراسة على المنهج التحليلي المبني على التحليل والتأويل والتعليل، الذي ينظر في بناء النص تركيبًا وتصويرًا، يتناول كل مكوناته ومكنوناته؛ فتقف الدراسة أمام المعنى المستكن في صدر القصيدة، وعلاقته بما نشر في السياق توضيحًا وتفصيلًا، وما بينه وبين ختام القصيدة من تواصل وتآخ وتآلف، والروح التي تسري في السياق من البدء حتى الختام، والهدف العام الكاشف عن المعاني الثانية والإيحاءات الدقيقة، والحقائق الجليلة.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس.

كما يلي:

المقدمة وقد تناولت الحديث عن الموضوع وأهميته وأسباب اختياره ومنهج البحث وخطته.

التمهيد: اشتمل على: .

أولًا: التعريف بالمسيب بن علس.

ثانيًا: التعريف بمنتقاة المسيب بن علس.

أما المبحث الأول: فجاء بعنوان الرحيل.

والمبحث الثاني: بعنوان المدح.

وأما المبحث الثالث فجاء بعنوان نظرات نقدية في منتقاة المسيب.

الخاتمة: وذكرت فيها أهم نتائج الدراسة.

الفهارس: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

هذا والله أسأل أن ينال البحث الرضا والقبول إنه ولى ذلك والقادر عليه.

اعتماد السيد عبد الفتاح شاهين
مدرس البلاغة والنقد

التمهيد

أولًا: التعريف بالمسيب بن علس.

اسمه:

المسيب بن علس (ت ٢٥. ق. هـ/ ٥٨٠م)

"الشاعر المسيب، واسمه زهير بن علس بن مالك بن عمرو بن قمامة بن عمرو بن زيد بن ثعلبة بن عدي بن ربيعة بن مالك بن جشم بن بلال بن جماعة بن جلي بن أحمس بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار (كنيته أبو فضة)، كان الأعشى راويته وهو خال (الأعشى ميمون) له ديوان شعر شرحه الآمدي[١]

لقبه:

لقب زهير بن علس بالمسيب، وعرف بهذا اللقب حتى غلب على اسمه، وهناك تفسيرات عدة لتسميته بالمسيب، إذ يرى ابن حبيب وابن سلام الجمحي أن الذي سيَّبه أن بني عامر بن ذهل أوعدوه فقال قومه: قد سيَّبناك والقوم.

وينفرد البغدادي في الخزانة برأي حول هذا اللقب فيقول" المسيب: اسم فاعل، لقب به لأنه كان يرعى إبل أبيه فسيَّبها فقال له أبوه: أحق أسمائك المسيب: فغلب عليه". ويذكر ابن دريد في الاشتقاق سببًا آخر لهذا اللقب فيرى أنه سمي المسيب ببيت قاله وهو :-

فإن سرَّكم أن لا تؤوب لقاحكم ... غزارًا فقولوا للمسيب يلحق[٢]

كنيته:

كما غلب لقب المسيب على اسمه، فقد كان أكثر تأثيرًا على كنيته، وقال المبرد في كتابه الكامل إن كنيته " أبو الفضة"[٣]

---

(١) الأعلام، خير الدين الزركلي،ط١١، دار العلم للملايين، ١٩٩٥، ج٧، ٢٢٥

(٢) ديوان المسيب بن علس، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور. عبد الرحمن محمد الوصيفي، مكتبة الآداب الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م،٢١

(٣) ديوان المسيب بن علس ،٢٢

عصره:

أجمعت المصادر على أن المسيب بن علس شاعر جاهلي، وقد ضنَّت المصادر بأخبار الشاعر وحياته، وموقعه من قبيلته(١)

مكانته الشعرية:

نال شعر المسيب من الضياع والإهمال ما نال غيره من شعر الشعراء المقلين الأخرين الذين تفرق شعرهم، واندرست أخبارهم، ولم يصل منها إلا النذر اليسير الذي احتفظت به المصادر، ويبدو أن للمسيب شأوًا بعيدًا في مجال الشعر، ومن المؤكد أن له أشعارًا أخرى ضاعت، ويظهر من خلال شعره الموجود، أنه كان يتمتع بموهبة شعرية جيدة، وقريحة ميزته وجعلته في مقدمة الشعراء المقلين في عصره؛ حيث عده ابن سلام من شعراء الطبقة السابعة من الجاهليين هو وسلامة ابن جندل والمتلمس وحصين بن الحمام المري. وقال عنهم ابن سلام: أربعة رهط مُحْكِمُون مُقِلُّون، وفي أشعارهم قلة فذاك الذي أخَّرَهم(٢)

وذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء أنه من شعراء بكر بن وائل المعدودين، وخال الأعشى واسمه زهير بن علس، وإنما لقب المسيب ببيت قاله.

وهو جاهلي لم يدرك الإسلام.

وكان امتدح بعض الأعاجم، فأعطاه، ثم أتى عدوًا له من الأعاجم يسأله، فسمَّه فمات، ولا عقب له.

وهو معدود بين الشعراء المقلين، شعره قليل في ذاته إلا أنه جيد في جملته(٣)

---

(١) ديوان المسيب بن علس ،٢١

(٢) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، شرحه محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة ، ج٢ /١٥٦

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٤ تحقيق أحمد محمد شاكر الجزء الأول، دار المعارف ، ١٧٤/١

ومما يستجاد له من شعره قوله في ذي الرقيبة:

وَلَقَدْ بلوت الفَاعِلِينَ وَفِعْلَهُمْ وَلِذِي الرَّقِيْبَةِ مَالِكٍ فَضْلُ
كَفَّاهُ مُخْلِفَةٌ وَمُتْلِفَةٌ وَعَطَاؤُه مُتَخَرِّقٌ جَزْلُ

قال أبو عبيدة: واتفقوا على أن أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة: المتلمس، والمسيب بن علس وحصين بن الحمام المري(١)

والأصمعي عده من الشعراء الفحول؛ لأنه وجد فيه ما يميزه عن غيره في ألفاظه ومعانيه؛ فجميع هذه الأحكام والآراء تؤكد شاعرية المسيب ومقدرته الفنية في تناول موضوعاته بأسلوب محكم وجزل دون تكلف وعناء، ولعل كثرة استشهاد اللغويين بشعره دليل آخر على سلامة لغته وبراعته في استخدام الالفاظ في مواضعها؛ فابن دريد استشهد بشعره في كتابه جمهرة اللغة بسبعة مواضع، وابن منظور في اللسان في ستة وعشرين موضعًا (٢).

وتبرز براعة المسيب في استخدامه للألفاظ والتراكيب، واتباعه للأساليب الشعرية المعروفة في عصره وما تتطلب من إجادة في عرض لوحاته وصوره. وقد سلك في المطولات من قصائده مسلك الشعراء المعروفين وحاول أن ينهج نهجهم، والمسيب حريص منذ مباشرة القصيدة على تهيئة جميع المستلزمات التي تضمن له معالجة الفكرة التي يريدها، والتي يحدد إطارها الكامل سلفًا، ثم يبدأ بعد ذلك بوصل أجزائها ليخرج منها بنسيج مترابط محكم(٣).

(١) الشعر والشعراء ، ١٨٢/١

(٢) ففي هذه المنتقاة الأبيات الرابع والخامس مذكورة في اللسان في مادة سحل بمعنى الثوب الأبيض فصاحب اللسان استشهد ببيتي المسيب ليوضح من خلالهما معنى كلمة سحل، والبيت الحادي عشر مذكور أيضًا في اللسان في مادة عود استشهد به صاحب اللسان ليدل على أن كلمة العيدان بمعنى الطوال من النخل.

(٣) مجلة المورد مجلد ٢٠ العدد الأول ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م وزارة الثقافة والإعلام ، دائرة الشؤون الثقافية بغداد.

المدح في شعر المسيب بن علس:

يعد المدح جل شعر المسيب بن علس، وهو يعد رائدًا من رواد فن المديح في الشعر الجاهلي.

وكان مدحه للسادات من القبائل رغبة في النوال منهم، وهذا واضح وجلى في شعره.

فالمسيب قد عمد إلى هؤلاء السادة متكسبًا بشعره؛ لذلك يعد أول شعر يصل إلينا وفيه رائحة التكسب بالشعر(١) .

صورة الممدوح في شعر المسيب بن علس: ـ

يأتي شعر المسيب في هذا الجانب انعكاسًا للبيئة العربية التي تمجد البطولة والكرم والأخلاق الحميدة. فصورة الممدوح عند المسيب لم تتعد صورة الفارس، الذي مجده العرب وهي: المقاتل، والفارس الكريم، والفارس الحليم، وصورة البحر والأمواج كانت المعادل لصورة الكريم في ذهن الشاعر؛ لأنه كان يسكن بجوار الخليج العربي؛ لذا تجد هذه الصورة ثابتة عنده في المديح وفي غير المديح. فالمدح عند المسيب على هذه الوتيرة يعد قوالب يملأها مع اختلاف الألفاظ والصيغ والأشخاص(٢).

(١) ديوان المسيب ٢٥

(٢) ديوان المسيب ٢٥

ثانيًا: التعريف بمنتقاة المسيب بن علس: ـ

انتقى أبو زيد القرشي[1] من شعر المسيب قصيدته اللامية في مدح مالك بن سلمة بن قشير، ووضعها ضمن طبقة المنتقيات لما اتسمت به من جودة في مبناها ومعناها. قال المسيب[2]

١-بَكَرَتْ لِتُحْزِنَ عَاشِقًا طَفْلُ ... وَتَبَاعَدَتْ وَتَجَذَّمَ الوَصْلُ

٢-أَو كُلَّمَا اختلَفَتْ نَويً وَتفرَّقُوا ... لِفُؤَادِهِ من أَجْلِهِمْ تَبْلُ

٣- وَإِذ تُكَلِّمُنَا تَرى عَجَبًا ... بَرَدًا تَرَقْرَقَ فَوْقَهُ ضَحْلُ

٤- وَلَقَدْ أَرَى ظُعُنًا أُخَيِّلُهَا ... تُخْدَي كَأَنَّ زهاءها نَخْل

٥- فِي الْآلِ يَرْفَعُهَا وَيُخْفِضُهَا ... رَيْعٌ كَأَنَّ مُتُونَه سَحْلُ

٦- عَقْمًا وَرَقْمًا ثُمَّ أَرْدَفَهُ ... كُلَلٌ عَلى أَطْرَافِهَا الحَمْلُ

٧- وَلَقَدْ رَأَيْتُ الفَاعِلِينَ وَفِعْلَهُمْ ... وَلِذِي الرَّقِيْبَةِ مَالِكٍ فَضْلُ

٨ -كَفَّاهُ مُخْلِفَةٌ وَمُتْلِفَةٌ ... وَعَطَاؤُه مُتَحَرِّقٌ جَزْلُ

٩-يَهَبُ الجِيَادَ كَأَنَّهَا عُسُبٌ ... جُرْدًا أَطَارَ نَسِيلَهَا الْبَقْلُ

١٠- والضَّامِرَاتِ كَأَنَّهَا بَقَرٌ ... تَقْرُو دَكَادِكَ بَيْنَهَا الرَّمْلُ

١١-وَالدُّهْمَ كالعِيْدَانِ آزَرَهَا ... وَسْطَ الأَشَاءِ مُكَمَّمٌ جَعْلُ

١٢-وإذا الشَّمَالُ حَدَتْ قَلائِصُهَا ... رَتْكًا فَلَيْسَ لِمالِكٍ مِثْلُ

١٣-لِلضَّيْفِ والجَارِ القريبِ ... وللطَّفلِ التَّرِيكِ كَأَنَّه رألُ

---

(١) صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب وهذا الكتاب يعد ذخيرة من ذخائر التراث العربي لما يحويه من نصوص ذات قيم فنية ومقومات إبداعية، حيث جمع فيه محاسن الشعر الجاهلي والإسلامي وجعله في سبع طبقات، من بينها طبقة المنتقيات، جمهرة أشعار العرب لمحمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق د. صلاح الدين الهواري ط١، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م المكتبة العصرية بيروت.

(٢) ديوان المسيب ٤٠

١٤- ولَقَـــد تَنـــاوَلَنِي بِنائِلِـــهِ فَأَصَـــابَنِي مِـــنْ مَالِـــهِ سَـــجْلُ
١٥-مُتَـــبَعِّجُ التَّيَّـــار ذُو حَـــدَبٍ مُغْـــرَوْرِبٌ تَيَّـــارُهُ يَعْلُـــو
١٦-فَلَاشَـــكُرَنَّ فُضُـــولَ نِعْمَتِـــهِ حَـــتَّى أَمُـــوتَ وَفَضْـــلُهُ فَضْـــلُ

تمثل هذه القصيدة صراع الشاعر مع الطبيعة، فهو يعيش حياة صعبة؛ تكاد أسباب العيش فيها تكون معدومة، وقد استطاع الشاعر بعد ما تبرم بالحياة، أن يجد حلًا يحقق له التوازن النفسي، والمادي في ظل مجتمع لا يعيش فيه إلا القوي، هذا الحل هو التكسب بالشعر لأنه يتقن فن القول الذي يؤهله لمدح الملوك للحصول على عطاياهم.

فقد تحدث في مقدمة القصيدة عن محبوبته التي فارقته؛ ليدل على أنها كانت تمثل لديه المعيشة الرغد التي كان يحياها، ثم بانت عنه، ولا يجد أسباب العيش الواسعة، فتبرم بالناس وأضحى مكسور الخاطر، وحاربته الطبيعة وتغلبت عليه واحتاج إلى من يجبر كسره؛ فلم يجد أمامه إلا مدح مالك بن سلمة الخير بن قشير، فيستدر عطفه، ويغدق عليه مالك العطايا والهبات.

فهذه القصيدة صورة من نفسية الشاعر، ومشاعره تجاه الحياة، قبل أن تكون صورة عن فراق محبوبته، ومدح مالك بن سلمة الخير بن قشير؛ حيث تجد الشاعر في هذه القصيدة يعبر عن قهره ومعاناته من حياته، مستخدمًا عناصر من حياته الجاهلية التي يألفها وتألفه، ويراها ماثلة أمامه في كل حين[١].

وقد قسمت هذه القصيدة مقطعين:

المقطع الأول: الرحيل وذلك من البيت الأول حتى البيت السادس.

(١) قضايا المنتقيات السبع في جمهرة أشعار العرب في ضوء الشعر الجاهلي، إعداد عمر عبد الله شحاته الفجاوي، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية، ١٤١٤هـ ،١٩٩٤م. ص ٢٠ وما بعدها.

وهو المبحث الأول وتناول الحديث عن رحيل المحبوبة، وحزن الشاعر وألم قلبه بسبب الفراق، ووصف جمال ثغر المحبوبة، ووصف الهوادج وطريقها.

المقطع الثاني: المدح من البيت السابع حتى نهاية القصيدة.

وهو موضوع المبحث الثاني وتناول فيه الشاعر مدح مالك بن سلمة الخير بن قشير بأنه أكرم من مدحهم وهو كثير العطاء وسيظل الشاعر يشكر فضله مدى الحياة.

المبحث الأول

الرحيل

قال المسيب:

١-بَكَـرَتْ لِتُحْـزِنَ عَاشِـقًا طَفْـلُ وَتَبَاعَـدَتْ وَتَجَـذَّمَ الوَصْـلُ[١]

٢-أَو كُلَّمَا اختلَفَتْ نَويً وَتفرَّقُوا لِفُـؤَادِهِ مِـن أَجْلِهِـمْ تَبْـلُ[٢]

٣- وَإِذ تُكَلِّمُنَـا تَـرىَ عَجَبًـا بَـرَدًا تَرَقْـرَقَ فَوْقَـهُ ضَـحْلُ[٣]

٤- وَلَقَـدْ أَرَى ظُعُنًـا أُخَيِّلُهَـا تُخْـدَي كَـأنَّ زهاءهـا نَخْـل[٤]

٥- في الْآلِ يَرْفَعُهَـا وَيُخْفِضُـهَا رَيْـعٌ كَـأَنَّ مُتُونَـه سَـحْلُ[٥]

---

(١) بكرت: بادرت وأسرعت، الطَّفْل: الرخص الناعم والجمع طِفَالٌ، وتجذم: انقطع ، وجذب فلان حبل وصاله وجذمه إذا قطعه ينظر اللسان مادة(بكر، طفل، جذم).

(٢) النوى: الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد. وقيل النَّوى التحول من مكان إلى مكان آخر كما تنتوي الأعراب في باديتها، والتَّبْلُ: أن يسقم الهوى الإنسان، يقال قلب متبول: إذا غلبه الحُبُّ وهيَّمَه، اللسان (نوى، تبل).

(٣) الضحل: الماء الرقيق على وجه الأرض، ليس له عمق، وقيل هو الماء القليل يكون في الغدير ونحوه، برد: سحاب كالجمد سمي بذلك لشدة برده، وبرده يبرده خلطه بالثلج وغيره اللسان (ضحل، برد).

(٤) الظعينة: الهودج تكون فيه المرأة ، وقيل هو الهودج، كانت فيه أو لم تكن. وعن ابن السِّكيت : كل امرأة ظعينة في هودج أو غيره، والجمع ظعائن وظُعُنٌ وأظعان وظُعُناتُ الأخيرتان جمع الجمع. وقال الليث: الظعينة: الجمل الذي يُركب، وتسمى المرأة ظعينة لأنها تركبه، وأخيلها: أظنها، وفي المثل: من يسمع يخل أي يظن، تخدي من خدي العير يخدي براكبه وزهاء الشيء قدره. اللسان (ظعن، خيل، خدي، زها).

(٥) الآلُ: السراب وآل كل شيء شخصه، وأن السراب يخفض كل شيء فيه حتى يصير لاصقًا بالأرض لا شخص له. وتريَّع السراب إذا جاء وذهب وريعان السراب: ما اضطرب منه. السحل: الثوب الأبيض من الكُرْسُف من ثياب اليمن. والمعنى أن الطريق الذي تسير فيه الظعائن مثل الثوب الأبيض. اللسان (أول، ريع، سحل)

٦- عَقْمًـــا وَرَقْمًـــا ثُمَّ أَرْدَفَـــهُ كُلَـلٌ عَلـى أَطْرَافِهَـا الخَمْـلُ[١]

هذا هو المقطع الأول من القصيدة، وهو مقدمتها الغزلية، التي افتتح بها المسيب بن علس منتقاته بالحديث عن المحبوبة كعادة شعراء الجاهلية، وكان غرضه هو مدح (مالك بن سلمة الخير القشيري)، مبينًا فضله وكثرة عطائه، وقد توصل إلى المدح عن طريق الغزل، فوصف رحيل محبوبته، ووصف جمال ثغرها، ووصف طريق سيرها فقال: .

١-بَكَـرَتْ لِتُحْـزِنَ عَاشِـقًا طَفْـلُ وَتَبَاعَـــدَتْ وَتَجَـــذَّمَ الوَصْـــلُ

بدأ المسيب قصيدته بأسلوب خبري خال من أدوات التوكيد، وأنبأ عن رحيل محبوبته، وانقطاع الوصل بينهما.

فبيَّن أن المحبوبة، وهي طفلة ناعمة خرجت باكرة وبعدت وانقطع الوصل بينهما، وقد أحزنه فراقها، ولم يكن غرض الشاعر الإخبار برحيلها، وإنما كان غرضه إظهار حسرته وحزنه على فراقها؛ فاختار لفظ يدل على سرعة رحيلها فقال(**بكرت**)، أي بادرت وأسرعت في رحيلها، والمعنى في القصيدة مبني عليه، فهو كالرحى الذي تدور حوله معنى القصيدة، وهو سرعة رحيل الحياة الناعمة بكل ما فيها من محبوبته والمعيشة الرغد؛ مما جعل الشاعر يرحل هو الآخر؛ للبحث عن معين يساعده على عودة ما رحل، وحرصًا من الشاعر على إظهار حزنه، قدمه لأنه المقصود فقال: (**لتحزن عاشقًا**)، على الفاعل(طفل)، فالتقديم هنا للأهمية، وكنى الشاعر عن نفسه بالصفة التي تظهر مدى تعلقه بمحبوبته وحبه لها فقال:(**عاشقًا**).

(١) العِقْمةُ: ضرب من ثياب الهوادج مُوَشٌّ: الرقم: ضرب مخطط من الوشي، وقيل من الخز، والكُلَلُ: جمع الكُلَّة، وهي الصوقعة، وهي صوفة حمراء في رأس الهودج، والخَمْلُ: هُدْب القطيفة ونحوها مما يُنسج وتفضل له فضول اللسان(عقم، ر قم، كلل، خمل)

وأما قوله: **(طفل)**، قد يكون مقصود به اسم المحبوبة، أو صفة لها وعلى هذا يكون قوله طفل كناية عن موصوف وهي المرأة الناعمة، فاختيار الشاعر للفظ طفل جاء عن قصد؛ ليبين كيف أن هذه الناعمة الرقيقة استطاعت أن تُسْكِن الحزن في قلب عاشقها برحيلها.

وقد يقصد بذلك الحياة الناعمة التي فارقته؛ وهذا ما دعاه للمدح لكسب المال وإعادة رغد العيش الذي فارقه، وبهذا ترى ملاءمة بين اسم محبوبته وسياق القصيدة والغرض منها، وبهذا تعلم وجه ارتباط المطلع بالغرض الرئيس من القصيدة. ويلاحظ تعبير الشاعر بصيغة **(تباعدت)** مما أدى إلى انقطاع الوصل بينهما، ويدل على المبالغة في تصوير بعدها اختياره لهذه الصيغة؛ ليدل بصوت الكلمة على أنها ذهبت بعيدًا، والبعد هنا في قوله: (تباعدت) دال على انقطاع العهد، وتصرم الوصل، وقد يكون التعبير بصيغة المفاعلة ليشير إلى حصول تباعد من الجهتين، ففي جانب المحبوبة رحلت مع أهلها؛ فتباعدت، وفي جانب الشاعر تباعدت عنه الحياة الناعمة. واشتمال الكلمة تباعدت على حرف المد(الألف) يرسم المسافة الكبيرة والهوة البعيدة التي أصبحت بينه وبين محبوبته، وأنه قد حكم بالفعل عليهما بالفراق الذي لا يرجى بعده لقاء، ويلاحظ تكرار الشاعر للرحيل ثلاث مرات بألفاظ مختلفة (بكرت، تباعدت، تجزم)، مما يساعد في تصوير الوحشة التي يعيشها الشاعر والغربة التي تسيطر على حياته بعد مفارقة الأحباب، ويؤكد هذا المعنى تعبير الشاعر بـ(تجزم) وهو الانقطاع الذي يفيد معنى الرحيل، وتعبيره بانقطاع الوصل يساعد في تصوير تلاشي أمل الشاعر في القرب والوصل مرة ثانية، ولا يتوقع إلا البعد الشديد بينه وبين محبوبته.

والعطف هنا بين قوله (تباعدت وتجزَّم) من قبيل الترقي في البين؛ لأن التعبير بالتباعد على أمل اللقاء والعودة بعد ذلك، فإذا كان من غير ردة فهو أعلى من سابقه فاختار التعبير بـ(تجزَّم)؛ ليدل على انقطاع حبل الوصل بينهما نهائيًا، وذلك من خلال صورة بيانية تمثلت في استعارة التجزُّم الموضوع لانقطاع

الحبل للتعبير به عن الفراق وانقطاع اللقاء بينهما، فكان التعبير بها أفضل من تخرم؛ لورود تجزم مقرونة بانقطاع الوصل في الشعر العربي.

ومما يستحسن في مطلع القصائد التصريع[1]، حيث يحدث نوعًا من النغم العذب، والموسيقى الشعرية الرائعة التي تجذب القلوب، والعقول لسماع الشعر؛ لذلك تجد أن هذا التصريع يزداد حسنه إذا كان في أول القصيدة؛ ليميز بين الابتداء وغيره، ويفهم قبل تمام البيت روي القصيدة، وقافيتها؛ وجاءت قصيدة المسيب نموذجًا حسنًا؛ لتوفر هذه العناصر في مطلعها، فقد جاءت مُصرَّعة، فيوشيها، ويزينها بالتصريع؛ حتى يزداد اهتمام السامع بها.

بدأ الشاعر هذه القصيدة بذكر الفراق والحزن، فأشار إلى الغرض الذي ساق القصيدة من أجله، وهو وصف حاله وما صار إليه، وإحساسه بالآلام والضيق نتيجة فراق محبوبته له، أو الحياة الناعمة ورغد العيش، مما جعله يغادر؛ ليمدح مالك؛ لينال عطاياه عله يتغلب على شظف عيشه، فهذا البيت مطلع القصيدة، وقد أجمل فيه الشاعر كل ما أراد التعبير عنه من معان تشير إلى حالته، ثم فصَّل في الأبيات التالية كل هذه المعاني؛ ومن ثَمَّ ترى حركة المعنى تمتد خلال الأبيات، وترى ارتباطًا وثيقًا بين مطلع القصيدة وبقية الأبيات، وهذا من براعة النظم يقول الدكتور محمد أبو موسى: " وكأن المقدمات هي المعارض والمعاني التي تتجلى فيها قدرات الشعراء"[2]

٢- أَو كُلَّمَا اختلَفَتْ نَويً وَتَفرَّقُوا لِفُؤَادِهِ مِن أَجْلِهِمْ تَبْلُ

(١) وهو "جعل العروض مقفاة تقفية الضرب ": الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع مختصر تلخيص المفتاح، تأليف الخطيب القزويني جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد بن عبد الرحمن القزويني، مكتبة ومطبعة على صبيح وأولاده بميدان الأزهر ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ، ص٢٢٣ .

(٢) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني د محمد أبو موسى مطبعة وهبة الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م. ١٢٧.

بدأ الشاعر بيته بالسؤال عن حاله، ويسأل عن مرض قلبه في كل مرة تنوي محبوبته الفراق، وذلك عبر أداة تشد الانتباه؛ ليظهر كثرة ألمه وطول حيرته في كل مرة تهاجر فيها محبوبته، والشاعر لا يريد إجابة من أحد! بل يظهر الشوق والتوجع؛ لفراق من يسكن قلبه.

يتساءل بقوله (أو كلما)، أفي كل مرة تبتعد عنه المحبوبة يصيب فؤاده السقم والألم، والاستفهام هنا يحمل معاني متعددة: فهو دليل توزع نفسه وتشتت قلبه؛ فالوصل انقطع وحل بقلبه المرض لفراقها، فالاستفهام خرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخر بلاغي، هو التعجب والدهشة مما وجده الشاعر من حزن قلبه على فراقها، وتكرار ذلك الحزن كلما فارقت المحبوبة.

والاستفهام هنا نسجه نسجًا رائعًا إذ صاغه كدليل على الجواب الذي لم يصرح به لأن التصريح به يزيده شجي ولوعة، والأحرى أن يقال إنه لا يريد جوابًا؛ لأن الأمر يتجاوز مجرد الجواب، لأنه بث لمعاني القلق والحزن لفراق من يحب؛ لذلك اختار الشاعر التعبير بـ (كلما)؛ لما انطوت عليه من دلالة على صدقه في التعبير عن استطالة البؤس، وتكراره. وهذا يؤكد أن المعاني أكثر من الكلمات، وأن كثيرًا منها لا تحملها الكلمات ومحبوسة في الصدور، ولهذا كثيرًا ما نجد المتحدث يستعين بالصوت فيرفعه مرة ويخفضه مرة أخرى، وأن يشير بيده إشارات قد تكون أحيانًا هادئة وأخرى قوية، كل هذا لأنه يريد أن يحملها ما يحسب أنه ربما يتفلت من العبارة ولا تسيطر عليه التراكيب[1]

ويلاحظ مجيء (تفرقوا) مضافًا لضمير الجمع وذلك من باب تعظيم شأن محبوبته، وفيه أيضًا إشارة لنمط حياة العرب المتنقلة في ذلك الوقت، وبيان الأثر المترتب على رحيل أحبائه، بمرض فؤاده الذي اكتوى بحبهم فاذا ابتعدت المحبوبة مرض قلبه.

---

(١) معاني التراكيب دراسة تحليلية في بحوث علم المعاني" دكتور عبد الفتاح لاشين أستاذ البلاغة والنقد جامعة الأزهر ج٢ ص٨٥ط الكتاب الجامعي ت .ط ١٤١٩هـ يناير ١٩٩٩م.

وفي إيقاع المرض المفهوم من قوله (تبل) على الفؤاد، مجاز علاقته الجزئية، لأن التبل هنا بمعنى أن يسقم الهوى الإنسان، والسقم للجسم كله، لكن الفؤاد أشد تأثرًا، أما اختيار لفظ (الفؤاد)؛ لأن لفظ (فأد) تدل في أصل اللغة على التوقد وشدة الحرارة، وهذا ما أراده الشاعر للتعبير عن حرقة قلبه بسبب رحيل محبوبته، وقال البعض إن محل العقل والفؤاد محل القلب؛ لذلك كان استخدامه لكلمة الفؤاد أدعى لإظهار تعامله بجميع جوارحه لإظهار حزنه. وفي تعبيره بقوله (من أجلهم) دلالة على أن سقم قلبه إنما كان بسببهم وفي هذا دلالة على شدة تعلق قلبه به، وتقديم الجار والمجرور (لفؤاده) على (تبل) تقديم عناية واهتمام، حيث كان محل الحب والحزن، وهو الفؤاد أولى بأن يقدم، فأفاد التقديم التخصيص، وأيضًا قد يكون التقديم لأجل المشاكلة لقافية الأبيات، فلو ذكر الكلام على الأصل لفاتت التقفية، وفسد الوزن، ولم يكن من الشعر في شيء، ولذهبت تلك الطلاوة، ولزالت تلك العذوبة، فيجوز أن يكون التقديم من أجل الاختصاص والتشاكل، « فيكون في التقديم مراعاة لجانب اللفظ والمعنى جميعًا»(١)

٣- وَإِذ تُكَلِّمُنَـــا تَـــرىَ عَجَبًـــا بَـــرَدًا تَرَقْـــرَقَ فَوْقَـــهُ ضَـــحْلُ

يصف الشاعر جمال فم محبوبته في مشهد غزلي، فعندما تتكلم تظهر أسنان بيضاء عليها قطرات من ريقها العذب في ثغر دقيق.

يخبر الشاعر بما تميزت به محبوبته من حسن وجمال، تمثلا في شدة بياض أسنانها وعذوبة ريقها، وكان غرضه إفادة المخاطب بما لم يكن له سابق معرفة به، فالخبر من الضرب الابتدائي، كذلك استخدم الشاعر أسلوب التقديم والتأخير، حيث قدم الظرف (فوقه)على الفاعل (ضحل)أي الماء الرقيق.

(١) الطراز متضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. الإمام يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. ص ٢٣٥.

استخدم الشاعر أيضًا (إذ) الشرطية مع الفعل المضارع، وعلق عليها الجواب (ترى)؛ ليساعد على فهم ما أراد، والشاعر عدل عن الفعل الماضي إلى المضارع في قوله: (تكلمنا)؛ لاستحضار تلك الصورة التي تحدث منها حالًا بعد حال، فالشاعر يغتنم لحظة كلامها؛ ليصف أسنانها البراقة للتعريف بمزايا جمالها، ومن خلال هذا الشرط والجملة الحالية استطاع الشاعر أن يبين مدي جمال أسنان محبوبته وثغرها.

واستخدم صيغة(عجبًا)؛ لجذب انتباه السامع وتشويقه لمعرفة هذا العجب؛ لذلك قدمه مباشرة بعد الكلام ويلاحظ تعبيره بالرؤية فقال: (ترى عجبا)؛ ليدل على أن العجب ليس راجعًا لسماع الكلام المفهوم من قوله (وإذ تكلمنا)، وإنما العجب راجع لأمر يتعلق بالرؤية، وفهم ذلك من اختيار الشاعر التعبير بالرؤية؛ ليدل على شدة جمال المنظر الذي يراه عندما تكلمه محبوبته، هذا المنظر الذي شوقنا الشاعر إليه عن طريق حسن الصياغة المتمثلة في الشطر الأول فإذا ما ذكر الشطر الثاني(بَرَدًا تَرَقْرَقَ فَوْقَهُ ضَحْلُ) تلقاه السامع بلهفة لأنه جاء بعد تشويق له. فرسم المسيب في هذا البيت صورة رائعة لمحبوبته مشيرًا إلى بياض أسنانها، التي شبهها بالسحابة البيضاء ونصوعها الجلي وتميزها بالبياض الواضح وفوقها قليل من قطرات الماء في إشارة إلى الضحل الذي يكني به عن الريق في الفم، فتتشكل صورة من نماء الحياة وحركتها كما هي الحياة المتدفقة في الثغر، والحديث العذب الذي تتحدث به مع نعومة صوتها ورقة كلامها؛ لذلك قال ترى عجبًا.

ووجه الشبه هو الحسن المنعقد من الصفاء والبريق والبياض في كلٍ، أضف إلى ذلك حذفه الأداة، وما أوحى به من إيجازٍ ومبالغةٍ، جعلت تشبيهه أشد وقعًا في النّفس، وغرض الشاعر من التشبيه تزيين المشبه، وقد استلهم الشاعر تلك الصورة بحسه ووجدانه، فأبدع في التصوير.

وقال واصفًا موكب المحبوبة:

٤- وَلَقَدْ أَرَى ظُعُنًا أُخَيِّلُهَا تُخْدَي كَأَنَّ زهاءها نَخْل

بعد أن تحدث الشاعر عن رحيل محبوبته، بدأ بوصف الهوادج، والتي كانت الوسيلة لنقل النساء من مكان لآخر، فوصف الشاعر موكب المحبوبة ومعها صويحباتها. فقال: (ولقد أرى ظعنًا)، يلاحظ أن الشاعر قد صدر بيته بالتأكيد عن طريق (اللام، وقد)؛ لأن الشاعر نزل السامع لهذا البيت منزلة من يشك في كلامه هذا، ويتوهم عكسه؛ لذا أكد الكلام بمؤكدين حتى يمنع هذا الوهم ويقطع ذلك الشك، ولكى يقنع نفسه الرافضة لرحيل المحبوبة بأن الرحيل حقيقة، ويثبت أنه قد حال بينه وبين محبوبته بالفعل، فالجملة خبرية من الضرب الإنكاري، واختار الفعل (أرى) ليثبت حصول الرؤية حقيقة، وقوله ظعنًا كناية عن موصوف فلازم معناها النساء؛ لأن الظعن جمع ظعينة، فهي من "الأسماء التي وضعت على شيئين إذا فارق أحدهما صاحبه لم يقع له ذلك الاسم؛ لا يقال للمرأة ظعينة حتى تكون في الهودج، ولا يقال للهودج ظعينة حتى تكون فيه المرأة" (١)

وتنكير ظعنًا للتهويل فالرحيل له الأثر الأكبر في النفس؛ ويثبت أن الرحيل قد حال بينه وبين محبوبته بالفعل؛ وهذا التنكير قد أسهم في تصوير المعاناة الشديدة التي توجد في أعماق الشاعر، وتهويل شأن البعاد عن محبوبته، حتى بات يظن أن هذه الظعن لغيرها.

أما عن اختيار الشاعر التعبير بلفظ (أخيلها)، قد يعطي دلالة على رفضه رحيل محبوبته؛ لأنه مازال متمسكًا بها ورافضًا لهذا الرحيل؛ لذلك ربط التخيل بحركة هذه الظعن، فقال: (تخدي) أي تسير سيرًا معينًا وهو السير رغمًا عنه، وكأن عقله وقلبه يرفض رحيلها، على الرغم من رؤيته رحيلها بعينه، ويدل على ذلك أنه عندما أراد أن يشبه هذه الظعن قال كأن زهاءها أي هيئتها تشبه النخيل، فمازال الشاعر يقنع نفسه بأن هذا الرحيل ليس لمحبوبته، وإنما هو لظعن تخيلها تسير.

(١) شرح القصائد العشر، للتبريزي، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥٢هـ ١٠٦.

وبنى الفعل (تُخدى)، للمجهول؛ لأنه يصور هذه الظعائن في صورة مسلوب الإرادة؛ فهذه المحبوبة أرغمت على الرحيل، وفي هذا إشارة من الشاعر إلى رحيل رغد العيش عنه، على الرغم من تمسكه به، مما جعله يرحل لطلب الحياة الناعمة؛ فلجأ إلى مدح مالك بن سلمة القشيري؛ لينال عطاياه، فبناء الفعل للمجهول قد يشير إلى المجهول الذي ينتظر محبوبته، حيث لم يتم تحديد مكان للذهاب إليه فرحيلهم إلى مجهول، ورحيل رغد العيش عنه أيضًا إلى مجهول؛ حيث لا يدري متى سينعم بالحياة الناعمة.

عندما نظر المسيب لمحبوبته وصديقاتها وهن على الهوادج، كانت تلك هي اللحظة التي استطاع من خلالها أن يتأمل صورة الهوادج، فصورها وهي على ظهور الإبل بشجر النخيل الذي يظهر أعاليه للناظر إليه من بعيد أكثر من أسافله، في حين لا تظهر أرجل الإبل التي تشبه سيقان النخيل. وأضاف إلى الصورة عنصر التفصيل من خلال وصف الشكل والحركة في المشبه، فذكر الشكل المتمثل في هيئة شيء مرتفع، والحركة المتمثلة في حركة الهوادج على ظهر الإبل ففيها تمايل واهتزاز، وفي المشبه به ظهر الشكل في هيئة النخيل العالي، وكذلك حركة شجر النخيل بفعل الرياح فيها اهتزاز وتمايل، وذكر الشاعر الحركة في أعالي الهوادج، دون أسافلها؛ لأن الحركة في الأجسام لا تظهر إلا مع أعاليها فوصف الظعن، وشبهها بالنخيل، ليدل على رحيل المحبوبة والحياة الكريمة.

فالشاعر استثمر المشاهد المتاحة أمامه في بيئته، ليجعلها منطلقًا إلى تصوير ما يدور بذهنه، فأتي التشبيه(كأن زهاءها نخل) مبينًا حال تلك الظعائن بمن فيها، وما فيها، فكأن الظعائن نخل في الطول والعظمة والهيبة والجمال، والقوة والرسوخ والامتداد الشامخ في الآفاق، وهذا الوصف ينبئ عن العظمة والرفعة، مع الإحساس بكل ذلك استخدم (كأن) لأن التشبيه بها "فيه من المبالغة

والتأكيد ما لا يكون مع (الكاف)؛ لذا فهي تستعمل حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يعتقد أن المشبه هو المشبه به لا غيره" (١)

ويصف حركة الموكب بقوله:

٥- فِي الْآلِ يَرْفَعُهَا وَيُخْفِضُهَا رَيْعٌ كَأَنَّ مُتُونَهُ سَحْلُ

يصور الشاعر في هذا البيت مدى تعلقه بهذه المحبوبة، حيث لم يكتف بوصفها ووصف الهوادج، بل من شدة حبه وتعلقه بها أخذ يصف حركة الهوادج وهي تسير وكأنه قام بالمراقبة الدقيقة لحركة الهوادج التي تعلو وتنخفض، وذلك في طريق طويل مثل الثوب الأبيض الطويل.

أخبر الشاعر عن طريق أسلوب التقديم والتأخير، وأسلوب التشبيه، بطول الطريق، ووعورته، حيث تقدم الجار والمجرور (في الآل)، وهو من متعلقات الجملة الفعلية (يرفعها)، وكذلك قدم المفعول به الضمير في (يرفعها، يخفضها) على الفاعل (ريع) وقصد به الطريق المنفرج عن الجبل، وتنكير ريع يشعر بعدم وجود طريق للتواصل بينه وبين محبوبته وهذا يوضح انقطاع أمل الشاعر ويأسه محبوبته ووصلها.

وغرضه إظهار تعلقه بالمحبوبة والاهتمام بها، وإظهار الحزن والحسرة؛ لفراقها وخوفه عليها، وهو يراقب موكبها المرتحل يتهادى بين السراب.

كما يلاحظ تقديم الجار والمجرور (في الآل) على الفاعل وذلك لمراعاة القافية الشعرية، والمحافظة على الوزن الشعري كما أن التقديم يكشف عن الحالة النفسية للشاعر؛ فذكره للسراب يشعر بشدة قلقه على محبوبته.

كما أن تكرار الحروف الحلقية (الهمزة والهاء والعين والحاء والخاء) يساعد في التعبير عما فيه الشاعر من حالة ضيق نفسي وألم وجداني، وكأن هذه الحروف تعبر عن الجلبات الصوتية القوية التي يصدرها الشاعر بداخله

(١) أدوات التشبيه ودلالتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، د محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة القاهرة ط٢، ١٤٢٨هـ ،٢٠٠٧م. ١٨٩

بسبب ضيقه النفسي، وكأن داخل الشاعر صراع يفتك به دون أن يشعر به أحد، عبرت عنه الأنفاس المختنقة لديه والتمتمات التي يصدرها من شدة غيظه وغضبه.

فتجد المسيب نظر إلى السراب فجذبه ذلك البياض الناتج عن أشعة الشمس وانعكاسها على السراب، فما كان منه إلا أن شبه الطريق الطويل الذي تسير فيه الهوادج بالثوب الأبيض الطويل، وهذه صورة بليغة من نتاج البيئة العربية الصحراوية، ويظهر فيها الحركة التي تنبعث من الهوادج في قوله (يرفعها ويخفضها)، مما أشاع التفصيل في الصورة، فأدى للحسن والروعة، وخاصة أن الأفعال المضارعة تدل على استحضار الصورة.

وتجد الطباق في قوله (يرفعها ويخفضها) يبرز المعنى ويقويه، ويشير بذلك إلى وعورة الطريق وكثرة تعرجاته. فهذا الطباق أوضح المعنى وأبرز الهوة البعيدة والفرق الشديد بين اللقاء والفراق وأثرهما على نفسية الشاعر، وللطباق أثر بديع في اجتلاء الحالة النفسية للشاعر.

وتجد للشاعر خطرات معنوية، انسربت إلى الأحوال اللفظية حيث تجد التأثير النفسي له أثر في اختيار الألفاظ، فذكر الشاعر لحركة سير الهوادج، (يرفعها ويخفضها) إنما هي صدى لجزعه الشديد، والحركة العنيفة التي هزته لفراق من يحب.

وبالنظر في جزئية السراب في هذا البيت، تجد أنها كالمتدرجة، أو المرتَّبة، فعندما قال المسيب (يرفعها)، كان يعني ظهور الظعائن بالعين المجردة، ثم بداية تلاشيها في السراب (يخفضها) أي تلاشيها النهائي مما يفيد الجهل بحالها، وهذه صورة طبيعية تبدو من بداية سير الهوادج تدرجًا حتى وصولها غاية البعد.

فالسراب رمز للخداع والهلاك، فرؤيته تبعث المخاوف في أنفس قاطعي الصحراء، واختيار الشاعر لصورة السراب ليصور بها الطريق الذي تسير فيه الظعن؛ دليل على المجهول الذي يحاول الشاعر أن يصور من خلاله مصير

هذه المحبوبة التي رحلت عنه، ومصيره هو أيضًا بعد أن تركته الحياة الناعمة.

ويبدو من شدة تعلق الشاعر بمحبوبته أن صورة هودجها قد انطبعت في ذهنه فأخذ يصف ألوانه وصفًا يدل على ترف ونعيم هذه المحبوبة فقال:

٦- عَقْمًا وَرَقْمًا ثُمَّ أَرْدَفَهُ كُلَلٌ عَلى أَطْرَافِهَا الخَمْلُ

تحدث الشاعر في هذا البيت عن الظعائن وهن على الهوادج المزينة بالقماش الموشي الأحمر المخرز وكان خلفه ستر رقيق يتدلَّى منه قطيفة جميلة من ريش النعام، مما يدل على الرفاهية والنعيم.

وتحدث الشاعر عن منظر الهوادج وفصل القول فيه، فذكر لون قماش الهوادج ونوعه.

استخدم الشاعر أسلوب التقديم والتأخير فقدم الجار والمجرور (على أطرافها) على المسند إليه (الخمل) والغرض من التقديم إظهار اهتمامه بطول أطراف القماش الذي على الهوادج؛ لأن في طولها دلالة على الترف والنعيم، وكأنه يذكر هذا الوصف عن قصد، حتى إذا ما أعطاه الممدوح، يعطيه عطايا عظيمه تناسب النعيم الذي عليه محبوبته. وتجد الشاعر قد أكثر في هذا البيت من الكلمات التي تدل على الزينة والوشي (عَقْمًا، وَرَقْمًا، كُلَلٌ، الخَمْلُ)، فبينها مراعاة نظير،" مما جعل الكلام متناسبًا متلائمًا لا تجد فيه لفظة نافرة ولا كلمة شاذة، تأخذ كل كلمة فيه بعنق صاحبتها وترتبط بها ارتباطًا وثيقًا"[(١)] وكأنه يريد أن يرينا كل شيء في أبهى حلة باختلاف الألوان، ومدى تناسق هذه الألوان، وكأن كل شيء أصبح مزدانًا فقد انتقى الألوان، ووظفها توظيفًا دقيقًا، فهو في حاجة لمن يملأ حياته بألوان البهجة والفرح وذلك بعودة رغد العيش عن طريق عطايا الممدوح له.

(١) دراسات منهجية في علم البديع، د الشحات محمد أبو ستيت، دار خفاجي ١٤١٤هـ ١٩٩٤م. ٦٩،

وبين قوله(عقمًا)، وقوله(رقمًا) محسن لفظي هو الجناس الناقص مما أضفى زينة على الألفاظ التي اختارها الشاعر؛ ليدل بها على تزين الظعائن والهوادج، وساعد أيضًا على تحسين نغم البيت.

وهكذا ترى في المطلع تلاؤمًا مع سياق القصيدة، فليس النسيب هنا من النوع الجزل الطروب، بل هو مما يثير داعي الحزن والأسى، وملائم لحال الشاعر وحزنه على رحيل الحبيبة وبينها، وهذه معاني تلائم الحزن العميق على فراق رغد العيش. وبهذا تجد ترابطًا بين تلك المعاني في المطلع وما قصد إليه المسيب في قصيدته من إعلان حاجته إلى عطايا الممدوح التي تزيل حزنه وتعيد له رغد عيشه. وهذه طريقة شائعة في ابتداء القصيدة بما يلائم الغرض منها؛ لذلك كان من جودة مطلع القصيدة" أن يكون فيه إشارة إلى ما سيق الكلام لأجله ؛ ليكون المبتدأ مشعرًا بالمقصود، والانتهاء ناظرًا في الابتداء "[١] فالإمام عبد القاهر الجرجاني قد قرر أن النسيب في مقدمة القصائد" لا يُراد منه إلا الاحتفال في الصنَّعة، والدلالة على مقدار شوط القريحة والإخبار عن فضل القوة، والاقتدار على التفنن في الصفة"[٢]

(١) المطول لسعد الدين التفتازانى ، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث، ٤٧٨ .

(٢) أسرار البلاغة، تأليف، الإمام أبي بكر عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه الشيخ محمود محمد شاكر مطبعة المدني بجدة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م ،١٠.

المبحث الثاني

المدح

انتقل الشاعر إلى غرضه الأصلي من القصيدة وهو المدح فقال:

٧- وَلَقَدْ رَأَيْتُ الفَاعِلِينَ وَفِعْلَهُمْ وَلِذِي الرَّقِيْبَةِ مَالِكٍ فَضْلُ[١]

٨ - كَفَّاهُ مُخْلِفَةٌ وَمُتْلِفَةٌ وَعَطَاؤُه مُتَخَرِّقٌ جَزْلُ[٢]

٩-يَهَبُ الجِيَادَ كَأَنَّهَا عُسُبٌ جُرْدًا أَطَارَ نَسِيلَهَا الْبَقْلُ[٣]

١٠- والضَّامِرَاتِ كَأَنَّهَا بَقَرٌ تَقْرُو دَكَادِكَ بَيْنَهَا الرَّمْلُ[٤]

١١-وَالدُّهْمَ كالعِيْدَانِ آزَرَهَا وَسْطَ الأَشَاءِ مُكَمَّمٌ جَعْلُ[٥]

---

(١) ذو الرقيبة مالك: هو مالك بن سلمة الخير بن قشير، الذي أسر حاجب بن زُرَارة يوم جبلة. جمهرة أنساب العرب ص٢٨٩

(٢) تخرَّق في الكرم: اتسع، ويقال: هو يتخرق في السخاء إذا توسع فيه. والجزيل العظيم. وأجزلت له العطاء أي أكثرت وعطاء جزل وجزيل إذا كان كثيرًا اللسان (خرق، جزل).

(٣) العسب: جمع العسيب، وهي جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يُكْشَطُ خُوصُها. والنَّسيل: ما سقط من الشعر أو الوبر أو الريش، ويقال: أنسلت الناقة وَبَرَها إذا ألقته. والبَقْلُ: كل نابتة في أول ما تنبت فهو البقل، واحدته بَقْلة اللسان (عسب، نسل، بقل).

(٤) الضَّامِرَاتُ: أي النوق ضامرة البطن، والضَّامِر: المُهَضَّمُ البطن اللطيف الجسم. وتقرو: تسير وتقطع، وقرا إليه قرْوًا: قصد، وقال الليث هو القصد نحو الشيء، وقرا الأمر واقتراه: تتبعه، ابن سيده: قرا الأرض قروًا تتبعها أرضًا أرضًا وسار فيها ينظر حالها وأمرها. وقال اللحياني قَرَوْتُ الأرض سرت فيها، وهو أن تمر بالمكان ثم تجوزه إلى غيره ثم إلى موضع آخر. والدِّكْدِكُ والدَّكْدَكُ من الرَّمل: ما تكبَّس واستوى، وقيل هو بطن من الأرض مستو، وقال الأصمعي: الدَّكْدَاك من الرَّمل: ما التبد بعضه على بعض بالأرض ولم يرتفع كثيرًا. اللسان (ضمر، قرا، دكدك).

(٥) الدُّهْمُ: الخيل السوداء. والعرب تقول ملوك الخيل دُهْمُها. والأشاء بالفتح والمد صغار النخل عامة، واحدته أشاءة. العيدان: الطوال من النخل. و أكمام النخلة: ما غطى جمارها من السعف والليف الجذع، والجَعْلُ: جمع الجعلة، وهي الفسيلة، وقيل النخلة القصيرة. قال الأصمعي: الجعل: قصار النخل اللسان (دهم، عود، أشي، كمم، جعل).

١٢-وإذا الشَّمَالُ حَدَتْ قَلائِصُهَا رَتْكًا فَلَيْسَ لِمالِكٍ مِثْلُ[١]

١٣-لِلضَّيْفِ والجَارِ القريبِ وللطَّفلِ التَّرِيكِ كَأنَّه رأْلُ[٢]

١٤- ولَقَد تَناوَلَنِي بِنائِلِهِ فَأَصَابَنِي مِنْ مَالِهِ سَجْلُ[٣]

١٥-مُتَبَعِّجُ التَّيَّار ذُو حَدَبٍ مُغْرَوْرِبٌ تَيَّارُهُ يَعْلُو[٤]

١٦-فَلَاشَكُرَنَّ فُضُولَ نِعْمَتِهِ حَتَّى أَمُوتَ وَفَضْلُهُ فَضْلُ

ففي هذه الأبيات يفضل المسيب ذا الرقيبة مالك بن سلمة الخير بن قشير سيد بني قشير على كل من مدحهم، فهو يرى كفه دائمًا تتلف الأموال على الفقراء والمحتاجين، كما أن عطاءه لا يعادله عطاء أبدًا، فهو يعطي الجياد للفقراء بلا حساب، كما أنه يعطي النوق الأصيلة والخيل السوداء التي تعد ملوكًا للخيل كله، ولم يضن بها لنفسه؛ ليتيه فخرًا وعزًا كما أن فخره لا يقف عند هذا الحد، ولا يقتصر على استقبال الضيوف، بل إن بيته يعد بيتًا

(١) الشِّمَالُ: ريح تَهُبُّ من قِبَل الشَّأم عن يسار القِبْلة، ويقال للشمال حدواء لأنها تحدو السِّحاب أي تسوقه. والقلائص. جمع قَلُوص، وهي الناقة الشابة، وقيل: لاتزال قُلوصًا حتى تصير بازلًا، والنوق الرَّاتكة: التي تمشي وكأن برجليها قيدًا وتضرب بيدها وهي مشية فيها اهتزاز اللسان. (شمل، حدا، قلص، رتك).

(٢) التَّريك: الذي لايرعاه أحد، وقال صاحب اللسان : وفي حديث الخليل، عليه السلام أنه جاء إلى مكة يُطالع تَرْكَتَهُ، التَّرْكَة، بسكون الراء في الأصل : بيض النعام، وجمعها ترك، يريد به ولده إسماعيل وأمه هاجر لما تركهما بمكة، والرَّأل : ولد النعام. اللسان (ترك، رأل).

(٣) النَّوَال: العطاء، والسَّجْلُ: الدلو الملأي، ورجل سجل جواد ، والسَّجْلُ: الصَّبُّ يقال: سَجَلْتُ الماء سَجْلًا إذا صببته صبًا متصلًا اللسان (نول، سجل).

(٤) الانبعاج: الانشقاق. والحَدَبُ بالتحريك ما ارتفع وغلظ من الظهر، وحَدَبَ الماء: ما ارتفع من أمواجه، وقال ابن الاعرابي: حَدَبَهُ: كثرته وارتفاعه. وغارب كل شيءٍ أعلاه. الليث: الغارب أعلى الموج، وأعلى الظهر. والغارب: أعلى مقدم السنام. وغوارب الماء: أعاليه، وقيل: أعلى موجه، شبه بغوارب الإبل اللسان (بعج، حدب، غرب).

لمن لا بيت له ، فله فيه حق المأوى والمأكل، ويضرب الشاعر مثلًا حيًّا على الكرم حيث ناله من هذا العطاء الكثير ويصل في النهاية إلى أن مالك بن سلمة مثل البحر الذي يعطي بغير حساب(١)

ومن الملاحظ أن الشاعر عندما أراد أن يتخلص من الغزل إلى الغرض الأصلي من القصيدة وهو المدح، لم يأتِ بألفاظ تعارف عليها الشعراء، مثل دع عنك هذا؛ وذلك لأنه لم يبتعد عن الغرض الأصلي من القصيدة، فمن بدايتها وهو يعلن صراحة أن الحياة الناعمة والتي تحدث عنها من خلال رحيل محبوبته قد قلته وفارقته، وهذا ما دعاه للمدح؛ ليستطيع أن ينعم بحياته الناعمة مرة أخرى بمعونة الممدوح.

فقال:

٧- وَلَقَدْ رَأَيْتُ الفَاعِلِينَ وَفِعْلَهُمْ وَلِذِي الرَّقِيْبَةِ مَالِكٍ فَضْلُ

في هذا البيت يخاطب الشاعر من لا علم له بممدوحه (مالك بن سلمة الخير)، بأنه كثير العطاء، وأنه قد رأى غيره ممن هم دونه في الكرم وكثرة العطاء، ولكنه تفوق وازداد عليهم في عطائه.

استخدم الشاعر أداتي التأكيد (اللام، وقد)، حتى يزيل الإنكار المتعلق بذهن المخاطب، والشاعر يبدأ نظمه بقوله: (ولقد رأيت)؛ ليجدد نشاط السامع لاستقبال معني جديد ، وليدل علي أهمية هذا المقطع عنده، حيث إنه بداية الغرض من القصيدة كلها، و" لأن من شأن المادح أن يلقى الخبر مؤكدًا كما امتلأت به نفسه، وأن يمنع السامعين من الشك فيه والارتياب "(٢)، وقد يكون التأكيد لمراعاة الخبر في نفسه؛ إذ هو عظيم الشأن جليله، لاسيما وأن علم ذلك عنده قد وصل إلى درجة الرؤية ففعل الرؤية: (رأيت) استشهادًا للمخاطب

(١) ديوان المسيب، ٤٠

(٢)علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د/بسيوني عبد الفتاح فيود مطبعة السعادة القاهرة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م. ١ /١٦٣

بما يراه لا بما يسمعه من أخبار الممدوح وليس أدل على الخبر من الرؤية، " فما راء كمن سمعا "ولهذا آثر الرؤية على العلم فقال (رأيت)؛ لأنها تستلزم الإدراك وتقتضيه.

ويظهر أسلوب الحذف في قوله (وفعلهم)، والتقدير (رأيت فعلهم)، والغرض من الحذف هو الإيجاز وتجنب التكرار، وهو حذف جملة (فعل وفاعل)، وقد أفاد الحذف الاختصار.

وفي قوله (ولذي الرقيبة) تقدم الجار والمجرور وهو المسند على (فضل) المسند إليه؛ لأهميته وإظهار صفته أو لقبه، والسبب في تقديم الجار والمجرور هو أن المبتدأ نكرة ولا يجوز الابتداء بالنكرة، والغرض من مجيء المسند إليه نكرة، الدلالة على عموم فضله وكثرته، وجودة ما ينفقه، مما جعله يفوق غيره في الفضل والعطاء، والشاعر في حاجة لهذا الفضل.

ويلاحظ التعريف بالعلمية في قوله "ذا الرقيبة مالك" وذلك لاستحضار المعبر عنه باسم يختص به حتى لا يشرد الذهن عنه بعيدًا ولا يتوهم أن الكلام عن غيره؛ إذ من المهم في هذا المقام بيان من سيوجه إليه الشاعر مدحه.

ويلاحظ أن تعبير الشاعر بـ(ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم)، مما يؤكد صحة ما قيل عنه بأنه كثير المدح لأجل التكسب، فكونه رأى الكثير يفيد كثرة مدحه لينال العطاء، وغالبًا ما يكون المدح في هذه الحالة غير صادق؛ لأنه مدح لأجل الحصول على العطايا فقط، والدليل على ذلك أنه قال على من مدحهم سابقًا بأنه خبرهم وعلم عطاياهم، ولكن عطايا مالك ستكون أعظم؛ لأنه مازال يريد الحصول عليها، فلم يحصل عليها بعد، فإنه لو حصل على ما يريد من مالك، ثم احتاج لمدح غيره فسوف يجعله أكثر عطاء من مالك، وهكذا تدور الدائرة حسب الحاجة.

والشاعر في هذا البيت أطلق حكمًا عامًا بأفضلية مالك بن سلمة على غيره، وهذا مما تستشرف النفوس لمعرفة سببه، وهذا ما فعله الشاعر في الأبيات التالية، وقد بدأ ببيان كرمه؛ لأن هذا هو الأهم عنده فقال:

٨ – كَفَّـــاهُ مُخْلِفَـــةٌ وَمُتْلِفَـــةٌ وَعَطَـــاؤُه مُتَخـــرِّقٌ جَـــزْلُ

لما أراد الشاعر أن يجعل الأسلوب يدعو للتفكر والمشاركة؛ حتى يتفاعل معه المتلقي، فصل هذا البيت عن سابقه؛ لشبه كمال الاتصال[١] فكأن البيت السابق اشتمل على استفهام مؤداه، كيف فاق مالك غيره في الفضل والعطاء؟ فاحتاج إلى جواب وبيان يزيل إبهامه، فجاء بهذا البيت ليجيب به على هذا الاستفهام.

أراد الشاعر أن يبين كثرة عطاء مالك فمدحه عن طريق المجاز المرسل، لأن (الكف)، وسيلة للعطاء، والعلاقة هي السببية لأن الكف سبب في وصول العطاء للمحتاجين، فالجملة خبرية من الضرب الابتدائي الغرض منها المدح، وقد جاء المبتدأ كفاه (مسندًا إليه) معرفًا بإضافته للضمير، وقد وصل الشاعر بين الجملتين بـ(الواو) ليؤكد المعنى، والمبتدأ في الشطر الثاني (عطاءه) جاء مضافًا إلى الضمير أيضًا، ليعرفه ويفيد التأكيد.

وقد وافق قوله حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطي منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطي ممسكًا تلفًا"[٢]، والبيت كناية عن العطاء والتعويض بسخاء والغرض وصف الممدوح بالسخاء المتناهي والزائد عن عطاء غيره.

ويلاحظ في تعبير الشاعر بقوله (مخلفة) أن عطاءه يخلف عليه الشهرة بالجود وبالكرم، (ومتلفة) قد يقصد بهذا التعبير أن عطاءه يتلف الفقر

(١) «وشبه كمال الاتصال هو الذي يسمى الاستئناف البياني، ومعنى الاستئناف فيه أنه استئناف جواب، وليس ابتداء كلام منقطع عن سابقه كما يُشعر بذلك لفظ الاستئناف، واستئناف الجواب هذا يتم به الكلام المنبثق من الجملة السابقة، التي هي كالأم لهذه الجملة؛ ولذلك تراها لا تستقل وإن طالت وتكاثرت فروعها، وامتدت » دلالات التراكيب – د/ محمد أبو موسى ص ٣١٦.

(٢) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة باب قول الله تعالى " فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى" ج٢/١١٥ حديث رقم ١٤٤٢.

والحاجة عند المحتاجين ويقضي عليها؛ فعطاء الممدوح كثير ومتسع ينال منه الجميع.

وبين اللفظين طباق وضح المعنى وحسنه، وتكمن بلاغة هذا الطباق في بيان التناقض الذي يحمله اللفظان من معنى العطاء والمنع.

ويلاحظ تعبير الشاعر بالجملة الاسمية؛ ذلك أن تلك الصفات المتقدمة ثابتة له ودائمة لا تنفك عنه؛ لذا جاء فيها بالاسم ليدل على الدوام؛ لأن انفكاكها عنه في زمن ما، ينقض الغرض المراد، وهو ثبوت كرمه على الدوام.

يواصل الشاعر المدح بذكر عطايا الممدوح فيقول:

٩-يَهَبُ الجِيَادَ كَأَنَّهَا عُسُبٌ جُرْدًا أَطَارَ نَسِيلَهَا الْبَقْلُ

الفعل المضارع في أول البيت يبعث على الشعور بعودة الحياة بهبة الممدوح؛ فالمضارع تجدد وحدوث وحركة وحياة، وهذه الدلالات تتسق مع الهبة التي تعيد له الحياة مرة أخرى.

فبدأ بالجملة الفعلية ليجعل الاهتمام كله منصبًّا نحو الحدث أو الفعل، وهو هبة الممدوح. والتعبير بالفعل المضارع للإشعار باستمرار إتيان الممدوح بكل عطاء يتعجب له مما يوحي بأن هذا شأن الممدوح، وديدنه هو التفرد والتميز والاتيان بكل جديد.

وصف الشاعر الخيل التي يعطيها الممدوح بأنها من أجود أنواع الخيل وهي التي لا شَعْر عليها، وهذا دلالة على كرم أصلها، فالشاعر أراد أن يرسم صورة الخيل التي ليس عليها شعر، ولكن بقيت بروز على جسدها من آثار الشعر الذي زال عنها، فاختار صورة جريد النخيل الذي نحي عنه خوصه وبقيت فيه بروز، فالشاعر بحث عن صورة تطابق هيئة الخيل الأجرد ووجدها في بيئته، وحتي يحقق الشاعر الصورة الكاملة وصف هيئة هذا الجريد بأن بروز صغيرة ظهرت عليه مكان قطع الخوص، وكأن هذه البروز هي التي أطارت الخوص لتظهر هي، فالتقط من بيئته صورة المشبه به التي ناسبت

المشبه؛ لذلك اختار أداة التشبيه كأن، التي تفيد تمام المشابهة.

واستخدم الشاعر أسلوب التقديم والتأخير حيث قدم، المفعول به (نسيلها)على الفاعل (البقل) والغرض هو الاهتمام بالمقدم، ليثبت أنها خيل كريمة، ولأجل المحافظة على القافية.

١٠- والضَّـــامِرَاتِ كَأَنَّهَـــا بَقَـــرٌ تَقْـــرُو دَكَـــادِكَ بَيْنَهـــا الرَّمْـــلُ

يواصل الشاعر الحديث عن عطايا الممدوح والتي منها الإبل الضامرة.

وقد وصل البيت بسابقه للتوسط بين الكمالين للاتفاق في الخبرية لفظًا، ومعنى ومما حسن الوصل أن الشاعر مازال يتحدث عن هبات الممدوح فالضامرات من جنس الهبات.

استخدم الشاعر أسلوب الكناية، ففي قوله (الضامرات)، كناية عن موصوف وهي الإبل.

يشبه الضامرات، وهي إبل مهضمة البطن لطيفة الجسم بالبقر الوحشي، وهو ضرب من الظباء التي تسير في تتابع على طريق واحد في الدكادك من الأرض، وهو ما غلظ منها، وكذلك تسير في الأرض اللينة، بجامع القوة والسرعة وأداة التشبيه (كأن) تفيد قوة الشبه، والطرفان حسيان يدركان بحاسة البصر، وهذا مما يزيده قوة وتثبتًا؛ لأن العيون هي التي تحفظ صور الأشياء في النفوس حفظًا لا يخالطه شك.

ولعل تحديد الشاعر للطرق التي تستطيع أن تسير فيها البقر الوحشي جاء عن قصد منه؛ وذلك لأنه لما قال الضامرات، ظن أن من يجد هذه الصفة في الإبل يعتقد أنها منهكة غير قادرة على السير، ولكنها خلاف ذلك، فذكر أن هذه الإبل الضامرة تسير في شتى الطرق المستوى منها والمتعرج، فهي قوية قوة البقر الوحشي، ووصف الشاعر للإبل بالضامرة، دليل على صبر هذه الإبل، وقوة عزيمتها، فدقة تصوير الإبل بإبراز أصالتها، ووصف نشاطها، دليل على قيمتها كعطية من الممدوح، ودليل على علو مكانة الممدوح، وعلى اصطفائه وتقريبه للشاعر.

يواصل الشاعر وصف هبات الممدوح فقال: .

١١-وَالــدُّهْمَ كالعِيْــدَانِ آزَرَهَــا وَسْــطَ الأَشَــاءِ مُكَمَّــمٌ جَعْــلُ

جاء هذا البيت موصولًا بما قبله وذلك للتوسط بين الكمالين للاتفاق في الخبرية لفظًا ومعنى، مع وجود المناسبة فالشاعر مازال يصف عطايا الممدوح الكثيرة والمتنوعة.

(الدهم) هي صفة للخيل السوداء، فحذف الموصوف وذكر الصفة، استخدم الشاعر أيضًا أسلوب التقديم والتأخير فقدم المفعول به الضمير في (آزرها) على الفاعل، (مكمم).

شبه الخيل السوداء بالعيدان وهي النخلة الطويلة التي جذعها أجرد من أعلاه إلى أسفله، وقوله: (آزرها وسط الأشاء مكمم)، يشير إلى صغار النخل وقصاره الذي ينبت بجوار الجذع الكبير للنخل، فالشاعر يبين عظم عطايا الممدوح، والتي تمثلت في أعظم أنواع الخيل والتي تحتها صغارها، فهي خليط من الجليلة والدقيقة والتي يشبهها بطوال النخل وقصاره، وأحاط الكبار الصغار حتى استوى بعضها مع بعض.

فالشاعر شبه الخيل بالنخيل مرة أخرى ولكن مع الاختلاف بين الصورتين. ففي الصورة السابقة شبه الخيل بالعسب الذي نحي عنه خوصه لتحقق الموافقة في الصورة، وفي هذه الصورة اختار العيدان وجعلها على هيئة معينة حتى تتحقق الموافقة في الصورة، وكل هذا يدل على تمكن الشاعر وحسن انتزاعه الصورة المناسبة، وذلك من بيئته التي يعيش فيها.

١٢-وإذا الشَّمَالُ حَدَتْ قَلائِصُهَا رَتْكًــا فَلَــيْسَ لِمالِــكٍ مِثْــلُ

وصل الشاعر هذا البيت بسابقه للتوسط بين الكمالين للاتفاق في الخبرية فمازال في سرد هبات ممدوحه، وتمثلت في هذا البيت في معنى الإيواء والحماية لمن لا مأوى له خاصة في ليالي الشتاء الباردة، حيث تزداد الحاجة إلى الإطعام في الشتاء لقلة الموارد.

عدل الشاعر عن تقديم الفعل، وقدم المسند إليه (الشمال)، وبالتقديم أصبحت (مبتدأ) خبره الجملة الفعلية (حدت)، وتقدم الجار والمجرور (لمالك)، وهو خبر (ليس) المسند، على المسند إليه (مثل) اسم (ليس)، وجملة (فليس لمالك مثل) واقعة بعد (الفاء) جواب شرط لـ(إذا)، والغرض من التقديم تأكيد المدح فالممدوح عطاؤه كثير، في حين يحجم غيره عن العطاء، فجاء الجواب مؤكدًا على تفرد الممدوح فليس له مثيل في تقديم المعونة للمحتاجين.

وقوله (قلائصها) كناية عن الإبل، ولفظ (رتكًا) اختاره الشاعر ليبين من خلاله كيف أن الرياح الباردة أثرت في الإبل، وجعلتها غير قادرة على السير السريع بل صارت تسير كالمقيد، فهذه الكلمة صورت اهتزاز الإبل الناتج عن البرودة الشديدة، وهنا يأتي دور الممدوح الذي يوفر الدفيء لكل المحتاجين.

فالشاعر ذكر عطايا ممدوحه التي تدل على كرمه، فالممدوح صار مأوى من لا مأوى له، فذكر أنه في وقت هبوب رياح الشمال الشديدة البرودة، والتي لا تستطيع الإبل القوية تحملها فتظل باقية في مباركها لا تبرحها من شدة البرودة، فالممدوح هو الحامي لها.

ولعل إشارة الشاعر إلى الرياح الشديدة البرودة، يرمز بها إلى إحساسه بالبرد الشديد وهو في خيمته، وكأنه يشير من طرف خفي إلى حاجته إلى ما يأويه من البرد، بعد ما حاربته الطبيعة ببرودتها.

١٣-لِلضَّـــيْفِ والجَـــارِ القريـــبِ وللطَّفـــلِ التَّريـــكِ كَأنَّـــه رأْلُ

يشمل عطاء الممدوح الضيف، والجار، والطفل اليتيم الذي لا عائل له، وإكرام هؤلاء من القيم التي أوجبها الإسلام بعد ذلك.

فبدأ بجملة خبرية من الضرب الابتدائي، استخدم الشاعر أسلوب الحذف، فحذف المبتدأ (المسند إليه) في قوله: (للضيف) والتقدير (عطاءه للضيف والجار القريب) والغرض من الحذف الإيجاز والبعد عن التكرار، فالبيت ورد في سياق الحديث عن عطايا الممدوح وكرمه، كما أنه يحفز القارئ

للبحث عن المحذوف فيمتعه ذلك.

وهناك علة لاختيار الشاعر المدح بتصوير الممدوح راعٍ لهؤلاء، فللكرم في نظر العربي عدة مظاهر منها إطعام الضيف والجار والأيتام، فأكبر لذة يشعر بها العربي الكريم، هي أن يسعد به ضيفه وجاره واليتامى، وأن يكون الملاذ لهم، والمعنى الذي ذكره الشاعر شيء أكبر، وأعمق في مدلوله من الإكرام والرعاية والعناية.

فسبب ذكره للضيف هو أنه يقيم فترة من الزمن، ثم يرحل حاملًا معه مدح من أقام عندهم، وكأن الشاعر يشير بذلك أن هذا المدح ليس شعرًا فقط، بل هو كل ما يفيض به قلب هذا الضيف، وتجيش به مشاعره؛ فينطلق لسانه بالثناء، والمدح لمن استضافه، وبهذا يكون مدحه له عرفان بالجميل ووفاء بالعهد.

وسبب ذكره للجار هو أن الجار لا يسعد بمجرد الإكرام، بل هناك أمورًا أهم بالنسبة له كحسن الجوار، والوفاء بالعهد، ورعاية الحرمات، والدفاع عنه، وحمايته من أن يستباح عرضه وماله وأرضه، وكأن الممدوح قد حقق له كل ذلك، وحينئذ ينطلق لسان هذا الجار بنشر فضائل جاره وهو الممدوح.

وكذلك بالنسبة للطفل وخاصة اليتيم فإنه يكون في أشد الحاجة لمن يأويه، وعندما يجده، يقدم له اليتيم أعظم ما يملك وهو الحب.

وهذه الصفات تعود بلا شك على الممدوح بلذة قوية يجد حلاوتها تسري في عروقه، وبين جنبات نفسه؛ فالبيت صورة لرباط المحبة بين الجميع. وترى الأخبار السابقة هادئة، فلم تؤكد مع أنها أمور عظيمة، وما ذاك إلا لإرادة ظهور الأمر واشتهاره، وأنه صار معلومًا لدى المتلقي.

١٤- ولَقَـــد تَنـــاوَلَنِي بِنائَلِـــهِ فَأَصَـــابَنِي مِـــنْ مَالِـــهِ سَـــجْلُ

وصل الشاعر هذا البيت بسابقه للتوسط بين الكمالين للاتفاق في الخبرية لفظًا ومعنى، ومما حسن الوصل أن الشاعر مازال يتحدث عن عطايا الممدوح، التي شملته حيث أصابه منه الكثير وقد أكد صفة الكرم عنده،

مستخدمًا (اللام وقد) فالجملة خبرية، من الضرب الإنكاري، وقد يكون التأكيد لمراعاة الخبر في نفسه؛ إذ هو عظيم الشأن، وفي قوله: (أصابني)، تقدم المفعول به (الضمير)، على فاعله (سجل)، والغرض تأكيد كثرة العطاء والعناية بالمتقدم لأنه الأهم، وهو أولى بالتقديم في مراد المتكلم من غيره، وفي البيت أيضًا تقدم الجار والمجرور (من ماله)، على فاعله (سجل)، وقد يكون التقديم لمراعاة القافية، واختار(فأصابني)، بدل من (فأعطاني)؛ ليدل على أن عطاءه قد شمله فيحتمل المعنى هنا غزارة العطاء، خاصة أن الشاعر اختار التعبير بلفظ تناولني؛ ليدل بذلك على أنه شمله بالعطاء، وكأن الشاعر صار منغمسًا في عطاء الممدوح؛ لذلك عبر بلفظ السجل وهو الدلو الممتلئ.

ومما زاد من حسن إيقاع البيت المحسن اللفظي المتمثل في جناس الاشتقاق بين اللفظين (تناولني، نائله)؛ ليحدث بإيقاعه وجرسه الموسيقي دويًّا نفسيًّا، ويقظة قلبية، تصفو النفس على أثرها لتلقي المعنى المراد، كما أن فيه إثارة النفس، وحملها على فهم ما قصده الشاعر بعد تمكن المعنى وتثبيته في النفس.

١٥-مُتَبَعِّجُ التَّيَّارِ ذُو حَدَبٍ مُغْرَوْرِبٌ تَيَّارُهُ يَعْلُو

صور الشاعر الممدوح بأنه جواد كثير العطاء كتيار الفرات أو كالبحر المتلاطم الأمواج.

يخبر الشاعر عن كرم ممدوحه فحذف المسند إليه في قوله: (مُتبعج)، والتقدير هو متبعج بدأ بحذف المسند إليه والتقدير، هو يعود على الممدوح، وتجد علة الحذف ادعاء تعينه؛ وللإيماء إلى أن العطاء إذا أطلق فلا ينصرف إلا إليه؛ لاشتهاره به وكماله فيه فلا يتوهم غيره، كما أن مقام المدح وما فيه من رغبة في العطاء فيه مندوحة لذلك الادعاء؛ لوضوح المسند إليه وظهوره بدلالة السياق والقرائن عليه، فذكره يعد حينئذ ضربًا من العبث لا يتناسب ودقة الشاعر التعبيرية وخبرته اللغوية، كما أن في الحذف إشعارًا بالهول والفخامة؛ إذ يتخيل السامع ويتصور من هو المقصود بهذا الكلام

شبه الشاعر ممدوحه بالبحر في عطائه، وقد توصل إلى هذا المعنى عن طريق الاستعارة المكنية، حيث شبه الممدوح بالبحر الزاخر بالأمواج العالية، والتي تشبه سنام البعير لعلوها وتبدو القيمة الفنية لهذه الاستعارة في أنها تفيد المبالغة؛ وذلك لأنها « تشكل الأشياء تشكيلا آخر، وتمحو طبائعها، وتعطيها صفاتٍ وأحوالًا أخرى يفرغها الشاعر وفقًا لحسه، وضروب انفعالاته وتصوراته »(١).

وفي الشطر الثاني من البيت قدم المسند إليه (تياره)، وكان غرضه بيان أهميته والتركيز عليه، فالمقصود به عطاؤه الكثير، فالخبر من الضرب الابتدائي خالٍ من المؤكدات.

وكأن الشاعر اختار التعبير بلفظ (متبعج)؛ لِيُبيّن من خلاله أثر عطاء الممدوح، فكأن هذا العطاء كان كثيرًا وعظيمًا لدرجة أنه أثَّر فيه عن طريق كسر الحياة القاسية، واستطاع من خلال هذا العطاء أن ينتصر على الطبيعة التي حاربته.

لأن معني متبعج، المطر الشديد الذي يؤثر في الحجارة ويكسرها لشدة وقعه، أي أن الممدوح انفرج عن العطاء الشديد الذي ظهر وصار كسنام الإبل الذي يعلو ويرتفع عن غيره، وبالتالي كان له أثر على حياة الشاعر الذي استطاع أن يكسر الحياة البائسة، ويرتفع ويعلو عن الاحتياج بعد أن غرق في بحر من العطاء ذي أمواج عالية، فقد غرق ولا يريد الخروج.

والغرض من هذه الصورة بيان عظم عطاء هذا الممدوح، فالشاعر استند على تلك الصورة الاستعارية حتى يصور لنا إحساسه بقيمة العطاء.

١٦-فَلَاشَكُرَنَّ فُضُولَ نِعْمَتِهِ حَتَّى أَمُوتَ وَفَضْلُهُ فَضْلُ

يشكر الشاعر ممدوحه على عطاياه مؤكدًا على دوام هذا الشكر ما دام على قيد الحياة، استخدم الشاعر أدوات التأكيد (اللام، ونون التوكيد)؛ ليزيل التردد والإنكار عن المتلقي، فالجملة خبرية من الضرب الإنكاري.

استخدم الشاعر كلمة (فضول)، ليؤكد بهذه الصيغة على كثرة عطاياه وتنوعها.

---

(١) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د/ محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ص١٨٣.

ويبدو أن الشاعر عندما رأى كثرة العطاء الذي حصل عليه من الممدوح، ظل يردد ويتغنى بفضل الممدوح، فعول الشاعر هنا على التكرار[1] فأتى بأكثر من صيغة للفضل (فضول، فضله، فضل) وإن كان هذا التكرار غير مقبول لإحداث تنافر خفيف في البيت مما أخل بفصاحته بعض الشيء، إلا أن العذر مقبول للشاعر الذي صار مهوسًا بفضل الممدوح وكيفية شكره؛ مما جعله يردد هذا اللفظ ثلاث مرات.

فالشاعر أحس أن عليه دينًا لهذا الممدوح لذلك قال:(فلأ شكرنَّ) فأتى بالفاء دلالة على التعقيب والمسارعة إلى رد الجميل، فالفاء دلت على رد الشكر على معروفه سريعًا، فلم يفكر أو يتردد، بل سارع إلى عقد العزم على شكره، حتى الممات، ومما يدل على صدق العزم في شكر الممدوح، أن الشاعر أكد الفعل بنون التوكيد، وهنا هذا الفعل واجب التوكيد لاستيفاء جميع شروط التوكيد وهي أنه مستقبل غير حال، جواب للقسم، لم يفصل بينه وبين نون التوكيد فاصل، مثبت غير منفي.

بعد أن عرض الشاعر حاجته من وراء ستار المدح، ذكر نتاج الاستعطاف، وهو أن الممدوح أعطاه وغمره بالعطاء؛ لذلك تجد الشاعر يعبر تعبيرات متفاوتة، وكأن العطاء الكثير جعله في حالة من الانبهار الشديد؛ لذلك تجده يذكر أن الممدوح وسعه بالعطاء الكثير الذي ظهر كأنه بحر زاخر أمواجه كثيرة عالية تدر عليه العطاء الكثير.

ويلاحظ أن الشاعر بدأ أبيات المدح بإثبات فضل مالك بن سلمة وتفوقه على غيره، وختم القصيدة بأن شكره لفضله دائم حتى الممات، وهذا ربما يفسر ما ذكره في أول المدح بأن مالك بن سلمة غير الذين مدحهم وعلم فضلهم.

---

(١) وضابطه: " أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد "تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري: ٣٧٥ تحقيق الدكتور حنفي محمد شرف إصدار المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية.

وبهذا كانت خاتمة هذه القصيدة غاية في الإحكام والجودة، مما يدل على أنها كانت موضع تأنق الشاعر ومحل اهتمامه؛ لأن الانتهاء كما قال العلماء هو "قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكمًا: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحًا له وجب أن يكون الآخر قفلًا عليه"(١)

وجاء اختياره للقافية المضمومة؛ لأنها تعبر عن القلق المتواصل، فالضمة بثقلها تصور ثقل هم الشاعر؛ فكان لهذا أثر في خلق جو يدعو إلى التعاطف مع هذا المحتاج والتلطف معه، وهو يبدو فيها متوقد العواطف والمشاعر، فهو يشكو قسوة الطبيعة عليه؛ فاللام المشبعة بالضم تحمل قدرًا كبيرًا من نفثات الصدر، وخاصة حين يطيل الناطق بها صوته قدر الطاقة ليصل صوته للممدوح ليعطيه ما يريد. وفي الاهتداء إلى روي اللام، وإشباعه بالواو تعانق موسيقي رائع، وتآلف نغمي يتناسب مع الشعور بالتباهي بعطايا الممدوح، ويسهم صوت اللام في نقل تجربة الشاعر حية نابضة، فاختياره لهذا الصوت المجهور يتناسب مع جهره بمحامد الممدوح، وكرمه ويتناسق مع وصف عطاء الممدوح وارتفاع نبرات الثناء بمكارمه وعزته، وتناسب ضمه مع ضم الممدوح للمسيب وعطفه عليه.

والقصيدة من بحر الكامل، وهو من البحور الكثيرة المقاطع؛ ولأن الموسيقى هي لغة العواطف والوجدان، والشاعر يقصد إلى استثارة عواطف الشفقة والرحمة عند السامعين، فكان بحر الكامل مناسبًا لهذه القصيدة.

وجاءت العاطفة عند الشاعر معبرة عن حاجته، وعن تعظيم الممدوح، وهذا يتوافق مع المدح والاستعطاف وطلب الحاجة.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تأليف أبي على الحسن بن رشيق القيرواني، الأزدي، حققه وفصله، وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، ط دار الطلائع للنشر والتوزيع القاهرة، ٢٠٠٦م، ج١/ ١٩٨ .

المبحث الثالث

(نظرات نقدية في المنتقاة)

من خلال الحديث عن (المدح للتكسب، العاطفة، منازع التشبيه، حركة المعنى في القصيدة، التلاؤم بين المطلع والمقصد)

المدح للتكسب:

إن قصيدة المسيب تنبئ بأمر مهم في العصر الجاهلي، هو التكسب بالشعر، حيث استحدث بعض الشعراء ظاهرة لم تكن موجودة في الشعر الجاهلي من قبل، وهي كثرة الارتحال والطواف بين البلدان؛ لمدح ملوكها رغبة في نيل عطاياهم من إبل وجياد وإماءٍ وقيان وغير ذلك، فكان الشاعر منهم كلما احتاج إلى المال ارتحل ليبتذل نفسه في سؤال الملوك فيمدحهم لينال منهم ما يريد، حتى أصبح التكسب بالشعر مهنة ثابتة لبعض الشعراء.

والتكسب بالشعر ظاهرة بدت واضحة لدى بعض الشعراء في العصر الجاهلي، لوجود من هو في حالة مادية متدنية، ومن هو في حالة مادية عالية، بين فقير وغني، وبين من تتغلب عليه ظروفه المادية والقاسية، ولا يقوى على تغيرها بقوة الغزو والسلاح فاختار طريقًا هي في مرتبة أدنى من مرتبة الغزو، إذ آثر السلامة، ليحقق شيئًا من التوازن.

وفي هذا يقول الدكتور درويش الجندي" كان بزوغ ظاهرة التكسب بالشعر أمرًا طبيعيًا استلزمته البيئة والظروف في الحياة الجاهلية، ففي الحياة الجاهلية فقر غالب وغنى قليل، وفي الحياة الجاهلية صراع وحروب تدور معظمها حول أسباب العيش الضيقة في بيئة يغلب عليها الجدب والقحط، وقد وجد الشاعر سبيلًا إلى الحياة في ظل قبيلته أولًا، إذ كان لسانه سيفًا معنويًا إلى جانب السيف المادي في يد المحارب المناضل، فإذا ضاقت على الشاعر سبل العيش في ظل قبيلته، أو كانت له مطامح في الترف والملذات تقصر عنها الحياة التي تنتهج الالتزام بأهداف القبيلة وصراعها مع الآخرين، تلمس لعيشه ولذاته سبيلًا خارج دائرة القبيلة، وإذا كان شعر الشاعر، يدور حول

الفخر بقبيلته وهجاء أعدائها، فمن اليسير أن يدور هذا الشعر إذا خفت منطقة الجذب العصبية القبلية لسبب من الأسباب حول مدح الآخرين وهجاء أعدائهم إذا انضوى الشاعر تحت لواء قبيلة أخرى، أو كان حرًا ينتقل بين السادة يستدر عطاءهم ومنحهم، مستغلًا رغبة الناس في المديح وخوفهم من الهجاء، وكلاهما يخلد ويسير في الآفاق في قوافي الشعر التي تعلق بالأذهان والحوافظ، ويسهل على الألسنة، بل يروق لها أن ترددها وتتناقلها من هنا ومن هناك" (١)

وتمثل هذه القصيدة صراع الشاعر مع الطبيعة التي تقلقه، فهو يعيش معيشة ضنكًا، وتكاد أسباب العيش فيها تكون معدومة، فدفعه ذلك إلى البحث عن بديل يحقق له التوازن المادي والنفسي. والمسيب يبدو مأزومًا قلقًا أشد القلق على حاله تحت غائلة هذه الظروف الصعبة القاهرة، فالحياة الكريمة الهانئة قد بانت عنه، وأضحت نائية منه، وتزداد صورة القلق عند الشاعر حين يصور السراب جليًا واضحًا في الصحراء، مما يدفع الشاعر إلى إيجاد حل لهذه المعيشة الشظف، ولا حل أمام شاعرنا إلا بمغادرة مكانه الذي يقاسي فيه صنوف العيش الصعبة إلى مكان يجد فيه مبتغاه ومستقره؛ حتى يستطيع تحقيق رغباته، وهذا ما دفع المسيب إلى المديح للتكسب. وقد استطاع الشاعر بعد ما تبرم بالحياة وحنق عليها، أن يجد ملتجأ يلتجئ إليه، تكون فيه الطمأنينة والاستقرار، ويحقق له التوازن النفسي الذي كان يفتقر إليه في ظل اصطراعه مع الطبيعة، ويحقق له التوازن المادي من أجل أن يستطيع العيش في ظل مجتمع لا يعيش فيه إلا القوي، أو من يحسن التكسب.

لعلنا نلتمس للشاعر عذرًا في هذا المديح المفضي إلى التكسب، فهو في صراع شديد مع نفسه ومع الطبيعة، وهو فاقد للتوازن النفسي والمادي، لأنه

(١) ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده ص ١٩ درويش الجندي، دار نهضة مصر القاهرة، ١٩٧٠م.

ضجر قلق، لا يجد أسباب العيش الواسعة، فلم يجد أمامه إلا التكسب، لأنه يتقن فن القول الذي يؤهله بلوغ الممدوح، فيستدر عطفه، ويغدق عليه العطايا والهبات(١).

وهذا يؤدي بنا إلى الحديث عن مقدار صدق العاطفة المسيطرة على الشاعر **فالعاطفة:** هي انفعال الشاعر ووقوعه تحت تأثير مشهد مؤثر أو موقف حرَّك كيانه وإحساسه، أو حادثة هزَّت مشاعره، فيجد نفسه مدفوعًا . بقوة العاطفة وثورة الانفعال . إلى التعبير عن انفعاله، وإخراج أحاسيسه في صورة كلمات معبرة عن عاطفته؛ لذا كان للعاطفة دور هام في نجاح التجربة الشعرية.

وذكر ابن قتيبة أن " للشعر دواعي تحث البطيء، وتبعث المتكلف: منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب"(٢)

ويقول ابن رشيق: " وقالوا قواعد الشعر أربع: الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع" (٣)

وفي قصيدة المسيب تجد أن العاطفة جاءت متنوعة ما بين حزن ولوعة، وبين رغبة وإعزاز وتعظيم وإجلال.

وتتجلى عاطفة الأسى واللوعة في المطلع الغزلي، الذي بدأ به الشاعر قصيدته حيث يعلن الشاعر حزنه لفراق محبوبته، فقد عاش الشاعر هذه المأساة بكل ما يملك من شعور وحس؛ لذلك تجد أن الألفاظ والعبارات تتوالى وتتابع، ــ منها على سبيل المثال (لتحزن، تباعدت، تجزم الوصل، نوى،

---

(١) قضايا المنتقيات السبع في جمهرة أشعار العرب في ضوء الشعر الجاهلي، إعداد عمر عبد الله شحاته الفجاوي، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية، ١٤١٤هـ ،١٩٩٤م. ص ٢٠ ومابعدها.

(٢) الشعر والشعراء ابن قتيبة، دار صادر. بيروت ص١٧

(٣) العمدة في محاسن الشعر ، وآدابه، ونقده، ج١/ ١٠٣

تفرقوا، تبل، ظعنًا، الآل، ريع) ـ لتجسد ما انطوت عليه دخائل الشاعر من مشاعر الحزن والألم لفراق ما يحب، ومصورة ببراعة وصدق عمق انفعاله بهذا الأمر، وبهذا تجد أن أبيات الغزل والمتمثلة في الأبيات الست الأُول تغلف بجو من الحزن الشديد حيث تعاونت الألفاظ الموحية، والأساليب المصورة والموسيقى الخفية في نقل العواطف الحزينة الغاضبة والشعور الصادق. فالعاطفة إذن صادقة نابعة من شعور داخلي بالحزن العميق لفراق من يحب.

أما العاطفة الأخرى وهي: عاطفة الاحترام والتقدير والتعظيم والإجلال، فقد تجلت من خلال أبيات المدح حيث كانت هذه العاطفة هي المحرك الرئيس لأبيات المدح وقد استطاع الشاعر عن طريق حسن اختياره للألفاظ والتراكيب ووضعها في موضعها المناسب لها من إبراز صفة الكرم لدى ممدوحه وجعلها متأصلة فيه، وأبرزها الشاعر عن طريق وصف العطايا التي يمنحها الممدوح؛ لذلك يمكن القول بأن العاطفة قد تكون صادقة وقت وصف الشاعر لعطايا الممدوح لأنه يصف شيئًا علمه، أما عندما بدأ الشاعر حديثه عن الممدوح بقوله:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الفَاعِلِينَ وَفِعْلَهُمْ وَلِذِي الرَّقِيْبَةِ مَالِكٍ فَضْلُ

فيلاحظ أن تعبير الشاعر بـ(ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم)، يؤكد صحة ما قيل عنه بأنه كثير المدح لأجل التكسب، فكونه رأى الكثير يفيد كثرة مدحه لينال العطاء، وغالبًا ما يكون المدح في هذه الحالة غير صادق؛ لأنه مدح لأجل الحصول على العطايا فقط، والدليل على ذلك أنه قال على من مدحهم سابقًا بأنه خبرهم وعلم عطاياهم، ولكن عطايا مالك ستكون أعظم؛ لأنه مازال يريد الحصول عليها، فلم يحصل عليها بعد، فإنه لو حصل على ما يريد من مالك، ثم احتاج لمدح غيره فسوف يجعله أكثر عطاء من مالك، وهكذا تدور الدائرة حسب الحاجة.

منازع التشبيه:

البيئة تعد منزعًا لمعظم الصور التشبيهية، لدى الشاعر حيث تجد امتزاجًا نفسيًا بين الشاعر وبيئته، وكانت البيئة بكل أنواعها هي المنزع الأساسي لكل تشبيهاته، وقد استحق الشاعر الفضل والتميز؛ لأنه اقتنص الأشباه المتعددة من مشبه به واحد واستطاع تطويعه حسب ما يريد، وجمع بينها لحسن الملاءمة، مما يدل على دقة وعى الشاعر بما يقول وما ينظم، وظهر ذلك من خلال التشبيه بالنخيل فقد استخدم صورة النخيل ثلاث مرات مختلفة، وفي كل مرة يأتي بصورة مناسبة.

تجد الشاعر عندما يريد أن يصف شيئًا فإنه يختار له من البيئة ما يوضح صورته، وظهر ذلك عندما شبه أسنان محبوبته بالسحابة، والهوادج بالنخيل، والطريق بالثوب الأبيض الطويل، مما يدل على مقدرة الشاعر على اقتناص الصورة التي تقرب المعنى الذي يريده، وقد أتاحت له بيئته هذا، أما عندما لا يجد ما يماثل الصورة التي يريد أن يوضحها؛ فإنه يلجأ للحقيقة وظهر ذلك عندما وصف ألوان الهوادج حيث لم يجد في بيئته ما يجمع هذه الألوان والتي هي أقرب إلي حديقة ملئ بالزهور الملونة؛ لذلك تجده يلجأ للحقيقة عندما لم يجد في بيئته ما يماثل الصورة.

حركة المعنى في القصيدة:

من المعروف أن جل الشعراء القدامى قد سلكوا في قصائدهم وبالأخص قصائد المدح منهجًا يقوم على تعدد الأغراض، وعلى الرغم من تعدد موضوعات القصيدة الجاهلية إلا أن حركة المعنى تُكون بين أجزاء النص ترابطًا منطقيًا، داخل القصيدة، من بدايتها حتى نهايتها، وذلك من خلال السمات الفنية والصور الشعرية، التي تكون وحدة ترابطية وانسيابية منطقية، تحقق المتعة في نفس المتلقي وهو ينتقل من جزء إلى آخر داخل إطار حركة المعنى. فتتبع حركة المعنى في النص من خلال الفنون البلاغية المختلفة، من أهم ما يكشف عن تماسك النص ووحدته وبلاغته.

والمقصود بحركة المعنى في القصيدة: هو التتبع للمعنى الرئيس الذي تدور حوله القصيدة، ومعرفة كيف ظهر من خلال الفنون البلاغية المختلفة، وكيف تعاضدت لإظهار هذا المعنى من البدء حتى الختام، وبيان دورها وأهميتها في بيان منهاج القصيدة، وكيف تلاقت هذه الظواهر البلاغية المختلفة حول هدف واحد، وروح مهيمن، فأدى ذلك إلى تناسقها وترابطها، مما ساعد على إدراك وحدة المعنى وتمركزه في الغرض الرئيس للقصيدة، وانطلاقه في سياقها، وتكامله، وتصاعده، ووصوله إلى غايته بالانتهاء من آخر بيت فيها، ويستنبط هذا المعنى العمدة من روافد شتى، منها اسم القصيدة، وما تفردت به من خصوصيات، قد تكون كلمة، أو تركيبًا، أو بيتًا خصت به، أو معنى اهتم الشاعر به، وسلط الأضواء عليه، ثم ما بين البدء والختام من علاقة التواصل والتآخي. (١)

وبالنظر في المنتقاة تجد المعنى الرئيس المتمثل في سرعة الفراق و شدة الحاجة لمن يعيد له ما فارقه، يسير من أول القصيدة إلى آخرها، فمنذ المطلع والشاعر يعلنها صراحة أن محبوبته فارقته، وقد يكون مقصده مفارقة رغد العيش له، فهو في حاجة شديدة لمعين يساعده على عودة الحياة الناعمة التي فارقته، حتى يحل مكان حزنه فرح، فيعلن الشاعر أنه في حاجة إلى الماء وذلك من خلال تشبيه أسنان محبوبته بالسحابة التي فوقها قليل من الماء، وعندما أراد أن يشبه سير الهوادج في الطريق فإنه اختار صورة طريق متعرج مجهول، وكأنه يشير من طرف خفي إلى المجهول الذي ينتظره بعد أن رحل عنه رغد العيش والحياة الناعمة، والدليل على ذلك اختياره للسراب الذي يعبر به عن الخداع والإهلاك، فرؤيته تبعث المخاوف في أنفس سكان الصحراء. فهو بذلك يعلن أنه في حاجة لمن ينقذه من المجهول، ويعلن أنه في حاجة لمن ينقذه من المعيشة

(١) نمط صعب ونمط مخيف، محمود شاكر، ط المدني ٤٥ ، قطرات الندى معالم الطريق إلى فقه الشعر، د، محمود توفيق، ط١ ١٤٢٢هـ مكتبة النعمان الحديثة ٧٠ وما بعدها.

الجدباء عند ما صور الخيل بالعسب الذي زال عنه خوصه، وعندما صور الإبل جعلها ضامرة وهذا دليل على جودتها ولكن وراء اختيار الشاعر للإبل الضامرة بالذات إشارة إلى أن جسده أصبح ضامرًا من شدة الجوع والحاجة، بعد أن قلته الحياة الناعمة، ففي هذا إشارة خفية إلى شدة حاجته، وعندما ذكر الدهم والأشاء والجعل، كان يعلن حاجته لمن يؤازره، وعندما ذكر الضيف والجار والطفل اليتيم، كان يقصد إعلان حاجته إلى معين يعطيه الحماية والحنان، وعندما ذكر رياح الشمال كان يعلن حاجته إلى من يأويه.

فحركة المعنى المتمثلة في سرعة الفراق وشدة الحاجة لمن يعوضه عما فارقه ظهرت في القصيدة من مطلعها حتى ختامها.

ولتمازج هذا المعنى تجده تتابع في الأبيات تتابعًا فيه التوافق والانسجام والتناسب، والشاعر لا ينقله عن الألفاظ الخارجية فقط ولكن من خلال مروره في شعوره ووجدانه؛ ولذلك لم يأتِ متناثرًا مفصولًا، وإنما ورد في كل متتابع يوافق انطباع الشاعر وما يدور في خلده.

التلاؤم بين المطلع والمقصد:

مطلع القصيدة هو موضع التأنق، يستجمع فيه الشاعر كل ما أوتي من وسائل البيان، وأدوات الإحسان فيجوده، ويحسنه، ويتجنب فيه كل لفظ مستكره قبيح، تنفر منه النفوس، وتمجه الطباع، ويتشاءم منه السامع؛ لأن مطلع القصيدة هو أول ما يقرع السمع، والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال، والتخلص، ومن بعدهما الخاتمة؛ فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور، وتستميلهم إلى الإصغاء.

فبدأ المسيب بالسبب أولًا، ليطلعك على مراده في مطلعه، ومقصده فذكر رحيل المحبوبة في استهلاله، وانتهى بالغرض الأصلي من القصيدة وهو مدح مالك بن سلمة القشيري، وقد كان مطلع القصيدة مفعمًا بالإشارات إلى غرضه ومراده منها. حيث كان المسيب بارعًا جدًا في إفعام مطلع القصيدة بالوشائج، والخيوط التي يهتدى بها السامع إلى مقصده من الكلام، ويتعرف من بداية القصيدة على الغرض منها.

فلو تأملت افتتاح المسيب وتقديمه هذه القصيدة بذكر الحزن على رحيل من يحب، وتباعدها وانقطاع الوصل بينهما تجده مناسبًا؛ ليدلك على أنه لا يشبب بـ "بطفل" كما هو الشائع في النسيب ... فهذا ليس مقامه؛ لأن ما أهمه أمر آخر وهو حزنه على فراق الحياة الناعمة له والبحث عمَّن من يعيد له رغد العيش، فلا يليق به والحال هكذا أن يكون نسيبه كغيره من الشعراء، بل لابد وأن يكون ملائمًا لحاله التي صار معها لا يملك قوت يومه فبدأ بذكر الفراق ونتيجته (بكرت لتحزن)؛ ليدلك على أن ما يعنيه أمر آخر شديد على نفسه، ليس أمر المحبوبة بسبب منه، وبهذا ترى ملاءمة بين اسمها وسياق القصيدة والغرض منها.

فليس النسيب هنا من النوع الجزل الطروب الذى يعيد ماضي حبيب إليه؛ بل هو مما يثير عنده داعى الحزن والأسى، وبهذا تجد ترابطًا بين تلك المعاني في المطلع وما قصد إليه المسيب في قصيدته؛ فالمسيب لم يقدم صورة واضحة مقنعة وصادقة للمرأة (موضوع الغزل)، كما يفعل الشعراء المتغزلون،؛ فلم يتحدث حديثًا شافيًا عن صفاتها النفسية فهي ليست حاضرة حضورًا ذاتيًا، كما أن التركيز لم ينصب عليها وحدها بل شمل أهلها الظاعنين أيضًا، ويلاحظ أن هذا الغزل ليس غزلًا صافيًا بل هو ممتزج بدلالات أخرى ليست لها طبيعة غزلية حقيقية أو أصلية في مذهب المتغزلين المعروفة فالمسيب يقابل بين فراق محبوبته وفراق رغد العيش له فهذه الأبيات تشير إلى نوع من الانزعاج والقلق. فـ" النسيب وذكر النساء إنما جيء به في القصيدة ليهز قلب السامع، لأن الله جبل النفوس على حب النسيب، وما يتصل بالمرأة، ثم إن الرحلة، لبيان العناء والكد فيستحق بذلك العطاء من الممدوح، وهذا واضح في قصيدة المديح والتي يراد بها التكسب"(١)

وهذه طريقة شائعة في ابتداء القصيدة بما يلائم الغرض منها. وبهذا ترى في المطلع تلاؤمًا مع سياق القصيدة.

---

(١) قراءة في الأدب القديم، د محمد محمد أبو موسي مكتبة وهبة ط ٤ ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م، ٣٦٨

الخاتمة

ـ بدأ المسيب قصيدته بالغزل كعادة الشعراء، إلا أنه من الملاحظ أنه استطاع ترويض الغزل ليتناسب مع غرضه في وصف حاجته، فتجده استفاد بهذا المطلع فائدتين أولهما: أنه سار على النهج المتعارف عليه في ابتداء القصيدة بالنسيب، وأما الفائدة الأخرى: أنه قد تمكن من تحميل معاني الغزل وصوره دلالات رمزية عميقة يشير من خلالها إلى غرضه، وهو إظهار حاجته للممدوح للحصول على ما يمكنه من إعادة رغد العيش والحياة الناعمة، وبهذا كانت القصيدة متناسبة متوافقة مطلعًا ونهاية يأخذ بعضها بحجز بعض في توافق وانسجام دون نُبُوٍّ أو قلق أو نشوز.

ـ تجد امتزاجًا نفسيًا بين الشاعر وبيئته، فالبيئة كانت منتزعًا لصوره التشبيهية، وقد استحق الشاعر الفضل والتميز؛ لأنه اقتنص الأشباه المتعددة من مشبه به واحد واستطاع تطويعه حسب ما يريد، وجمع بينها لحسن الملاءمة، مما يدل على دقة وعى الشاعر بما يقول وما ينظم وظهر ذلك من خلال التشبيه بالنخيل فقد استخدم صورة النخيل ثلاث مرات مختلفة، وفي كل مرة يأتي بصورة مناسبة.

ـ تعد صفة الكرم هي العليا والأكثر ذكرًا في القصيدة، وقد مدح الشاعر فأجاد؛ حيث وصف ممدوحه بفائق الكرم مستخدمًا صورًا بيانية متعددة جميعها تبين كرم الممدوح، فقد استطاع أن يؤدى هذا المعنى أوفى تأدية.

ـ كثرت التشبيهات بصورة واضحة في ثنايا القصيدة فأسنان المحبوبة كالسحابة البيضاء، والظعن كالنخيل، والطريق كالثوب الأبيض الطويل، والجياد كالعسب، ولإبل كالبقر الوحشي والخيل السود كالنخيل الطويل، وعطاء الممدوح كثير كالأمواج، كل هذه التشبيهات تصيب الهدف وتحقق المقصود، مما يدل على مقدرة الشاعر على اقتناص الصورة التي تقرب المعنى الذي يريده، وقد أتاحت له بيئته هذا، واستخدم الشاعر بكثرة أسلوب التقديم

والتأخير، لما فيه من فوائد وأغراض كثيرة منها الاهتمام، واستخدم أسلوب الحذف، وأسلوب التأكيد.

ـ ضمَّن المسيب المعنى الذي يسعى لتوصيله وهو ـ شدة الحاجة ـ جميع أبيات القصيدة، من أجل تشويق السامع، وتحريك فكره، لمواصلة الاستماع للقصيدة حتى النهاية، متتبعًا حركة هذا المعنى؛ فتجعله دائمًا متيقظ الفكر، حاضر الذهن، حتى يتمكن من معرفة طريقة الشاعر في عرض المعاني، فيقع الكلام في نفسه أحسن موقع؛ لأنه تلقاه بعد ترقب، وناله بعد تعب.

ـ جاءت موسيقى القصيدة متناغمة متوافقة في التعبير عن المشاعر الكثيفة المتداخلة التي انطوت عليها نفس الشاعر ليخرج لنا لحنًا موسيقيًا عذبًا.

وبهذا يتضح أن هذه اللامية قد جاءت متماسكة البناء، بديعة السبك، جيدة الوصف، محكمة الرصف، مختارة الألفاظ، شريفة المعاني، وغير ذلك كثير مما يثير الاعجاب ويلفت الانتباه، ويؤكد سبب اختيار أبى زيد القرشي لها.

هذا والحمد لله في الأولى والآخرة.

فهرس المصادر والمراجع

١- أدوات التشبيه ودلالتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، د محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة القاهرة ط٢، ١٤٢٨هـ ،٢٠٠٧م.
٢- أسرار البلاغة، تأليف، الإمام أبي بكر عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه الشيخ محمود محمد شاكر مطبعة المدني بجدة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م.
٣- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط١١، دار العلم للملايين، ١٩٩٥.
٤- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع مختصر تلخيص المفتاح، تأليف الخطيب القزويني جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضى القضاة سعد الدين أبي محمد بن عبد الرحمن القزويني، مكتبة ومطبعة على صبيح وأولاده بميدان الأزهر ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
٥- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري: تحقيق الدكتور/ حفني محمد شرف، إصدار المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية.
٦- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د/ محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
٧- جمهرة أشعار العرب لمحمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق د. صلاح الدين الهواري ط١، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م المكتبة العصرية بيروت.
٨- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني – د/محمد أبو موسى – مكتبة وهبة ط ٩، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.
٩- دراسات منهجية في علم البديع، د الشحات محمد أبو ستيت، دار خفاجي ١٤١٤هـ ،١٩٩٤م.
١٠- دلالات التراكيب دراسة بلاغية- د. محمد أبو موسى الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

١١- ديوان المسيب بن علس، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور. عبد الرحمن محمد الوصيفي، مكتبة الآداب الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.
١٢- شرح القصائد العشر، للتبريزي، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥٢هـ.
١٤- الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف.
١٥- -طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، شرحه محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، د.ت.
١٦- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- الإمام يحي بن حمزة ابن علي بن إبراهيم العلوي اليمني - مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبد السلام شاهين - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
١٧- ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده، درويش الجندي، دار نهضة مصر القاهرة، ١٩٧٠م.
١٨- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود مطبعة السعادة القاهرة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.
١٩- العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تأليف أبي على الحسن بن رشيق، القيرواني، الأزدي، حققه، وفصله، وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، ط. دار الطلائع للنشر والتوزيع القاهرة، ٢٠٠٦م.
٢٠- قراءة في الأدب القديم، د. محمد محمد أبو موسي مكتبة وهبة ط ٤، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.
٢١- لباب البديع - د. محمد حسن شرشر- دار الطباعة المحمدية - القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
٢٢- لسان العرب لابن منظور، تحقيق. عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، طبعة دار المعارف.

٢٣- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، د. محمد محمد أبو موسي مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
٢٤- المطول لسعد الدين التفتازانى، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث.
٢٥- معاني التراكيب دراسة تحليلية في بحوث علم المعاني" دكتور عبد الفتاح لاشين أستاذ البلاغة والنقد جامعة الأزهر ط الكتاب الجامعي ت . ط ١٤١٩هـ يناير ١٩٩٩م.
٢٦- معاني النحو في القرآن، فاضل صالح السامرائي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.